ميخائيل سالطيكوف- شيدرين

الحكايات



ترجمة: أماني التفتازاني



ميخائيل سالطيكوف- شيدرين

الحكايات

ترجمة: أماني التفتازاني

مراجعة: عبدالله حبه

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PZ63.R87 V53125 2020

.Saltykov-Shchedrin, Mikhail Evgrafovich 1826- 1889

الحكايات / تأليف ميخائيل سالطيكوف- شيدرين ؛ ترجمة أماني التفتازاني ؛ مراجعة عبد الله حبّه. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

٨٥ ص. ؛ ٢١ سم.

ترجمة كتاب: Сказки

تدمك: ٩٧٨-٩٩٤٨-٣٤-٩٥٩-٤

1- القصص الروسية- مترجمات إلى العربية- القرن 19. 2- القصص العربية- مترجمات من الروسية- القرن 19. أ- تفتازاني، أماني. ب- حبّه، عبد الله. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:

михаил салтыков щедрин

Сказки

طبع الكتاب بموافقة المجلس الوطني للإعلام برقم الطلب MC-03-01-3908019 .

طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 8002220



www. kalima. ae

ص. ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima. ae هاتف: 579 5995 2 +971



الحكايات

المحتويات

مقدمة

تحتلُّ أعمالُ ميخائيل سالطيكوف - شيدرين مكانة خاصة في تاريخ الأدب الروسي: «كتابات من المحافظة»، و«قصة مدينة»، و«الأغوات آل جولافليوف»، و«بوشيخونيا في قديم الزمان»، و« سمات الزمن»، و«رسائل من الأقاليم»، و«الحكايات»... وغيرها. كان سالطيكون صاحب قلم انتقادي ساخر، تناول العديد من الموضوعات الاجتماعية والظواهر السلوكية السلبية في المجتمع الروسي في زمانه بأسلوبٍ فلسفي. وتعرض، بسبب أفكاره المتحررة، إلـى ملاحقات سلطات روسيا القيصريَّة، وحكم عليه بالنفي إلى الأقاليم، الأمر الذي كان له عظيم الأثر في أعماله الأدبية. شغل فيما بعد عدة مناصب إدارية جعلته على اتصال مباشر بأحوال البسطاء. وكما جاء في إحدى

حكاياته فإنه : «أحب بلاده بعمق بكل ما فيها من فقر وتعاسة، وتنبأ بأنه ربما تحدث معجزة تزيل أحزانها في المستقبل».

عانى سالطيكوف، مثل غيره من الكُتَّاب، من تعسُّف الرقابة، ما دفعه إلى استخدام الأسلوب الساخر واللغة الشاعرية في كتاباته، كما استخدم الخيال للسخرية من الواقع المؤلم، وكذلك للدعوة إلى المُثل العليا التي تتجسد، حسب رأيه، في: الحرية، والتطور، والعدالة، وهذا بالذات ما كانت تفتقر إليه روسيا آنذاك.

نظر سالطيكوف - شيدرين إلى الأدب بوصفه «ملح الحياة الروسية»، مثمناً دور الأديب في تغيير حياة المجتمع نحو الأفضل. وفي هذا الكتاب يروي سالطيكوف - شيدرين قصصه على ألسنة الطيور والحيوانات والأسماك، مستخلصاً منها الحكمة والدروس والعبر ، فهذه الطريقة تُعدُّ آمنة للإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، كما إنها طريقة للتنفيس عما يجيش في صدر المؤلف من مشاعر تجاه الأحوال الاجتماعية والسياسيَّـة السيئة التي سادت البلاد في فترة من الفترات. إنها لون من ألوان التعبير الرمزي عن قضايا الواقع الذي يلجأ إليه الكاتب محاولاً التخفي وراء الرمز لمواجهة الظلم والتعسف، وتقديم النصح والإرشاد والتوجيه بطريقة غير مباشرة.

خروف بلا ذاكرة

عاشت الخِراف الأليفة في عبودية الإنسان

منذ قديم الأزل وأصول سلالتها مجهولة.

(بريم)

لكن هل تمتَّعت الخِراف الأليفة يوماً ما بالحريَّة! عند هذه النقطة يقف التاريخ صامتاً.

في أزمنة سابقة، تضرب بجذورها في التاريخ القديم، امتلك الأشراف قطعان الخِراف، من ثَمَّ وعلى مدار قرون طويلة بدأت الخِراف تنتشر على وجه البسيطة على نطاق واسع كحيوانات أليفة، كما لو كان ذلك عن عمد، لتكون تحت إمرة الإنسان المخلوق. وقد أنتج الإنسان بدوره سلالات خاصة كاملة من الخِراف، لا يجمع بينها -تقريباً- أي جامع مشترك، فمثلاً: ثمة نوع من الخِراف رُبيت للحصول على اللحم، ونوع آخر من أجل الحصول على الشحم، أما النوع الثالث فكان للحصول على فروها الدافىء، والنوع الرابع لأجل الحصول على الصوف الناعم الرفيع التيلة.

وبطبيعة الحال، فإنَّ ما تتذكَّره الخِراف المستأنسة عن أسلافها الأحرار شيئاً ضئيلاً. وكل ما تعرفه عن نفسها، ببساطة، أنها تنتمي إلى السُّلالة التي انحدرت منها منذ الولادة. وتعدُّ هذه اللحظة نقطة الانطلاق في قصِّة الخروف الشخصيَّـة، حتى إنها تتلاشى تدريجياً، بمجرد وصول الخروف إلى مرحلة البلوغ. في الحقيقة إن الخروف الحكيم، هو فقط ذلك الخروف الذي لايتذكَّر أي شيء، ولا يعرف سوى العشب والتبن الذي يقدم له طعاماً.

لكن من عساه يكون بمنأى عن الخطيئة والمحنة. ذات يوم وبينما استسلم أحد الخِراف للنوم، راوده حلم؛ فرأى فيه ليس النُّخالة والتبن فقط، ولهذا استيقظ مضطرباً، وبحث بعيون متلهِّفة طويلاً عن شيء ما! وبدأ يتذكر ما الذي رآه، لكنَّه لم يستطع تذكُّر أيِّ شيء. تذكَّر فقط الضوء الفضـيَّ الخفيَّ الذي ظهر من مسافة بعيدة، لا شيء آخر، ولم يتبق لديه سوى شعور غامض بهذه البقعة الفضية عديمة الشكل، كما لم تكن ثمة أي سمة محددة أو أي صورة حية!

سأل الخروف أحد الخِراف الراقدة بجواره، والذي لم ير حلماً في حياته: أيها الخروف... أيها الخروف! ما هذا الذي رأيته في الحلم؟

أجابه الخروف بسخط: نَمْ أيها الحالم! لم يجلبوك من وراء البحار لكي ترى الأحلام، وتتخيَّل نفسك متميزاً وعلى آخر موضة!

كان الخروف من صنف مارين الإنجليزي الأصيل. دفع فيه المالك، إيفان سوزونتش راستاكوفسكي، أموالاً طائلة، وقد علَّق عليه آمالاً كبيرة. لكنه بالطبع، لم يجلبه من وراء البحار، لكي يخرج من صلبه جيل من الخِراف الذكية، وإنما كي يلد لمالكه قطيعاً من الأغنام ذات الصوف الناعم الغزير.

في الفترة الأولى، حينما جاء به إلى الضيعة، أثبت الخروف قدراته على أفضل وجه، فهو لم يناقش أيَّ شيء، ولم يهتم بأيِّ شيء، حتى إنه لم يفهم أين أحضروه ولماذا، عاش فحسب. وفيما يتعلَّق بمسألة ماهية الخِراف، وما هي حقوقها، وما هي التزاماتها، فإن الخِراف لم تنشر أي دعاية

بشأن ذلك الموضوع قط، وإنما بالكاد ظنَّت أن مثل هذه الأمور يمكن أن تدور في رؤوس الخِراف أصلاً. وهذا الأمر تحديداً ساعدها على تنفيذ الأعمال المُناطة بها في الوقت المحدد بنزاهة. حتى إن إيفان سوزونتش نفسه لم يمل من الابتهاج بها، ما دفع الجيران لإظهار الإعجاب، وهم يردِّدون: انظروا!

فجأة جاء هذا الحلم، ولم يفهمه الخروف البتة. لكنه شعر فقط بإحساس غير عادي يتسلَّط عليه، وبشيء من الاضطراب والكآبة. وعلى ما يبدو أنه كان في الحظيرة نفسها، ولديه العلف نفسه، وقطيع الأغنام نفسه المعد للتطوير، ولكن بدا وكأن هذا كلَّه لا يمتُّ إليه بصلة! صار يتجول في الحظيرة كالتائه، وينطلق في المأمأة فقط. ما الذي رأيته في الحلم؟ فسِّروا لي ما الذي رأيته؟ ولكن الخِراف لم تُظهر أيَّ نوع من أنواع التعاطف تجاه القلق الذي شعر به، ودون شغف نعتوه بالحكيم والفيلسوف، وهو الأمر، الذي كان يعني، بلغة الخِراف، ماهو أسوأ من «قلَّة الاحتشام».

منذ أن بدأت الأحلام تراوده، تذكَّرت الأغنام بمرارة خروفاً من سلالة شلينسك العادية الذي مأمأ أمامهم بالتتابع، قبل أربع سنوات، وفي نهاية المطاف أُرسل إلى المطبخ تقديراً لخدماته، وهناك فُقد أثره: (شاهدناه فقط لاحقاً محمولاً فوق طبق على نحوٍ مهيب إلى سيِّد المنزل). لقد كان هذا الخروف خادماً حقيقياً! فلم تراوده أيُّ أحلام، ولم يشعر بأيِّ قلق، وقد أدَّى واجبه وفقاً لميثاق الخِراف المحدَّد، ولم تكن لديه رغبة في معرفة أيِّ شيء. فماذا حدث! لقد استُغني عن خدماته فحسب، هو الخادم القديم المحنَّك، وحلَّ محله كبش كسول وحالم، وبينما يمأمئ من الصباح حتى المساء بشيء ما، تمضي النعاج عقماء!

اشتكت النعاج للراعي نيكيتا: إن هذا الكبش البليد لا يقوم بواجبه البتة في تطوير السلالة، ونخشى أن يحاسبنا إيفان سوزونتش على سلوك هذا الأبله؟

- اهدأن ياعزيزاتي! طمأنهنَّ نيكيتا، غداً سنجزُّ صوفه، ثم بعد ذلك سنجلده بنبات القراص، وسيصبح طيِّعاً!

لكن لم تتحقق حسابات نيكيتا، فقد جُزَّ صوف الخروف وجُلد بنبات القراص، لكنه رأى الحلم في الليلة نفسها مجدداً.

ومنذ ذلك الحين، لم تفارقه الأحلام؛ فحالما يثني ساقه تحته، تسيطر عليه الغفوة، ولا يعرف إذا كان الوقت في الفناء ليلاً أم نهاراً.

وحالما يغمض عينيه تتغير هيئته كلياً، ولا تظهر على وجهه أيُّ أمارات تدلُّ على أنه خروف، بل يفيض بالصرامة، مثل رجل عجوز من الرجال الذين كانوا يلقبون بـ«الوزراء» في السنوات الغابرة. وسيقول كل من مرَّ به حتماً: «إن مكان هذا الخروف ليس في حظيرة الماشية، بل هو جدير بمنصب حاكم المدينة!».

لكن مهما بذل من جهد في التربُّص من أجل استعادة الحلم الذي رآه لتوه، فإن جهوده تذهب هباءً.

لقد تذكَّر مرور صور، بل لوحات كاملة أمام ناظريه في الحلم، وقد أدَّى التأمُّل فيها إلى إثارة ابتهاجه، لكنَّ الصور واللوحات اختفت في مكان ما، وأصبح مجدداً خروفاً عادياً. وكان الفرق كلُّه يكمن فقط في أنه كان سابقاً يمضي بابتهاج لأداء عمله كخروف، أما الآن فهو يسير مصعوقاً، وقد بحث لغباوته عن شيء ما لا يعرفه، ولم يستطع أن يفسر ذلك هو نفسه.... إنه خروف، زد على ذلك أنَّه سوداويٌ، لا يمكن أن يتوقَّع في المستقبل سوى السِّكين؟!

لكن علاوة على السِّكين، الذي ينتظره في المستقبل، فإن وضعه كخروف بحد ذاته كان يعذبه. ولا يوجد ألم أكثر حرقة من التحوُّل عاجزاً من الظلام إلى نور غياب الوعي المزعج. إن الخروف المسكين والمسحوق المرتبط بالتعطُّش المباغت إلى الأماني العديمة الشكل، تتقطَّع به السُّبل، ويرزح تحت وطأة العذاب، فهو لا يستطيع تحديد طابع هذه الأماني ولا مصدرها. إنه يشعر بأن قلبه يتلظَّى باللهب، ولا يعرف لأيِّ غرض يشتعل هذا اللهب. إنه يدرك، بشكل غامض، بأن العالم لا ينتهي عند جدران الحظيرة، وأن ثمة مستقبلاً وضَّاءً وبهيجاً يتفتَّح وراء هذه الجدران، وهو لا يستطيع تحديد حتى سمات هذا المستقبل. إنه يتحسَّس النور والرحابة والحريَّة، لكنَّه لا يستطيع إعطاء جواب عن السؤال حول ما هو النور والرحابة والحرية.

ومع تكرار الأحلام الكثيرة يزداد اضطراب الخروف أكثر فأكثر، ولا يرى أيَّ تعاطف أو جواب من أي مكان. ولدى اقترابه تفزع الخِراف منه وتتدافع. أما راعي الغنم نيكيتا فكان يعرف، كما يبدو، السبب لحد ما، إلا أنه التزم الصمت بإصرار. لقد كان رجلاً ذكياً يدرك كل دقائق سلوك الخِراف، ويعرف بدهيَّة واحدة فقط، ويقول برزانة:

ما دمت قد ولدت بهيئة خروف، فمعنى ذلك أنك يجب أن تعيش هكذا!

لكن هذا بالذات ما لم يستطع الخروف تحقيقه، فهذا «الانتماء» بالذات كان يعذِّبه، ليس بسبب سوء المعيشة، بل لأنه منذ بدأت تراوده الأحلام، بات يتراءى له باستمرار «انتماء» آخر.

لم يكن قادراً على استرجاع ما يراه في الأحلام، وأصبحت حياته بائسة، لأن غرائزه مستثارة لدرجة أنه رغم غموض القلق في أعماق كيانه، فإنه لا يستطيع السيطرة عليها.

مع ذلك، وبمرور الزمن، بدأت مخاوفه تنحسر، وبدا كما لو أنه عاد إلى جادة الصواب. لكن هذه الطمأنينة لم تكن نتيجة القرار الواعي بالمضي في جادة الصواب، وإنما على العكس كانت دليلاً على ضعف جسده العام. ولهذا لم يحصل على أي منفعة منها.

كان الخروف - يبدو أن ذلك عن قصد - ينام منذ الصباح حتى المساء، كما لو أنه أراد أن يكتسب في النوم الأحاسيس الحلوة التي يفتقدها في الصحو.

وفيما راح الهزال يدبُّ فيه والوهن أيضاً يوماً بعد يوم، ويزداد أكثر فأكثر، أصبح في نهاية المطاف هزيلاً للغاية، حتى إن الخِراف الغبية حسدته، وصارت تعطس وتتهامس فيما بينها. وفيما سيطر عليه السَّقم، غدت سحنته تفيض بالفطنة والذكاء أكثر فأكثر، وأشفق عليه جميع الرعاة، فقد كانوا يعرفون أنه خروف نزيهٌ وطيِّبٌ، وإذا لم يحقِّق أماني صاحبه فالذنب لا يقع عليه، بل لأن مصيبة شديدة ما داهمته، وهي مصيبة لا تصاب بها الخِراف عموماً، لكن في الوقت نفسه حدّس الكثيرون غريزياً أنهم يمنحونه شرفاً شخصياً كبيراً.

وقد نظر إيفان سوزونتش نفسه بتعاطف إلى عذابات الخروف. وألمح الراعي نيكيتا مراراً إلى أن أفضل حل لهذه المعضلة الغامضة هو السِّكين، لكن راستاكوفسكي عارض هذا بإصرار.

وقال: ضاعت نقودي، فأنا لم أدفعها من أجل الحصول على فروته! دعه يموت وحده.

ثم جاءت لحظة الحسم البهيجة المنتظرة. غمر الحقول نور القمر ذات ليلة دافئة في شهر يونيو، وساد السكون المطبق في كل مكان، والتزم الصمت ليس البشر فقط، بل بدا أن الطبيعة كلها قد جمدت في ذهول سحري.

كان الجميع نياماً في حظيرة الغنم، فقد غفت الخِراف بالقرب من السياج، ونكَّست رؤوسها. أما الخروف فكان يرقد وحيداً في وسط الحظيرة. وفجأة هبَّ بسرعة وبجزع، عدَّل سيقانه، ومد عنقه، ورفع رأسه إلى الأعلى، وتمطَّى بكامل جسده. وقف في وضعية الانتظار هذه، كما لو أنه يتنصَّت ويمعن النظر، وقف عدة دقائق، ثم انطلقت من صدره مأمأة شديدة وعجيبة...

عندما سمعت الخِراف أصوات الاحتضار المهيبة هذه قفزت من مكانها برعب واندفعت جانباً. كما استيقظ كلب الحراسة، وراح ينبح لكي يفرض النظام بين القطيع المضطرب. لكن الخروف لم يلق بالاً إلى الهرج والمرج حوله، وانغمس بكل كيانه في تأملاته.

لقد انبجس سرُّ أحلامه الحلو أمام بصره المغبش...

بعد لحظة، ارتجف لآخر مرة، ثم طوى سيقانه تحت جسده، وهمد فوق الأرض ميتاً.

حزن إيفان سوزونتش كثيراً لموته، وقال بصوت عالٍ:

- ما السبب؟ لقد كان خروفاً مثل بقية الخِراف، وبغتة بدا كما لو أن الغمامة انقشعت عن بصره. نيكيتا! أنت تعمل راعياً منذ خمسين عاماً، ولابد أنك تعرف العلَّة التي تصيب هذه الحيوانات فقل لي: ما سبب المصيبة التي حلت به؟

- لا بد أنه رأى في الحلم «خروفاً حراً». لقد رآه في الحلم، لكنه لم يستطع إدراك السلوك الحقيقي الواجب اتباعه.. ولهذا أصابته في البداية كآبة، وبمرور الزمن نفق. الشيء نفسه قد يحدث للبشر...

لكن إيفان سوزونتش لم يرغب في سماع بقية التفسير. وأثنى على نيكيتا قائلاً: هذه عبرة لنا... في مكان آخر ربما تحوَّل هذا الخروف إلى عنزة. أما عندنا فالقاعدة السائدة هي: ما دمت خروفاً ابق خروفاً بلا أي خزعبلات لاحقاً، وعندئذ سيكون صاحب القطيع راضياً، وأنت كذلك، والحكومة أيضاً ستكون مسرورة، وسيتوفَّر لديك كل ما ترغب فيه: العشب، والعلف، والعصيدة، وستكون الأغنام راضية عنك.. أليس كذلك، يانيكيتا؟

أجاب نيكيتا: بالضبط تماماً، يا إيفان سوزونتش!

الذِّئب المسكين

لو كان وحشاً آخر، لتأثَّر بأقوال الأرنب، ولم يكتف بتقديم الوعود، بل لأعلن العفو عنه فوراً. لكن الذِّئب يعدُّ من أقلِّ الوحوش، التي تعيش في المناطق الشمالية والطقس المعتدل، سماحة ورحابة صدر.

علماً بأنه لا يتَّسم بهذه القسوة بإرادته، بل لأن طبيعته ماكرة، ولا يستطيع أن يأكل غير اللحم. وبغية الحصول على اللحم لا يستطيع سوى سلب حياة كائن حي آخر. صفوة القول إنه مرغم على ارتكاب الأفعال الشريرة والنهب والسلب.

إن حصوله على الطعام ليس يسيراً، فالموت لا يحلو للآخرين، غير أنه يجلب الموت إلى الجميع. ولهذا فإن الأقوى يستطيع حماية نفسه منه، أما الآخر، الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فيتولى حمايته آخرون. غالباً ما يعاني الذِّئب من الجوع، فيغدو مكرمش الجانبين. تراه يجلس عندئذ، رافعاً «بوزه» إلى الأعلى، ويعوي عاجاً بصوته لدرجة أن جميع الحيوانات من بعد 1060 متراً تجعِّد أجسادها وتلويها من الرعب والكآبة. أما الذِّئبة، قرينته، فتعوي بصوت أكثر كآبة، لأن لديها صغارها، ولا يوجد ما تطعمها إياه.

لا يوجد حيوان في الدنيا لا يكنُّ الحقد للذئب، ولا يصبُّ عليه اللعنات. تئنُّ الغابة كلّها لدى مجيئه إليها مردِّدة: «الذِّئب اللعين! القاتل، الفتَّاك!». وبينما يهرب الحيوان، ويهرع نحو الأمام، ولا يجرؤ على الالتفات إلى الوراء، يتردد في أعقابه صوت: «ياقاطع الطريق! يامجرم!». لقد سرق الذِّئب من فلاحة قبل شهر خروفاً، ولا تزال الفلاحة تذرف الدموع حتى الآن، وتقول: «الذِّئب اللعين! المجرم». أما هو فمنذ ذلك الحين لم تدخل فمه قطرة من ندى الخشخاش، فقد التهم الخروف، ولم يحصل على آخر.. الفلاحة تصرخ وهو يعوي.. فكيف تحلُّ المشكلة!

يقال إن الذِّئب ظلم الفلاح الموجيك، لكن الموجيك[1]، أيضاً صبَّ جام غضبه عليه!فضربه بالهراوة، وأطلق عليه النار من بندقية الصيد، ونصب له الفخَّ في حفرة، ووضع له مصيدة، وطارده. يصف أهل القرية الذِّئب بقولهم: «قاتل! قاطع طريق! لقد ذبح آخر بقرة! وسرق آخر خروف!». ولكن ما ذنبه إذا كان لا يستطيع العيش بشكل آخر؟

وإذا قتلته فلا نفع منه، لأن لحمه لا يصلح للأكل، وفروته خشنة، لا تدفئ. المنفعة الوحيدة من قتله هي أن تشعر بالارتياح البالغ حين تعلِّقه، اللعين، حياً بالمذراة: دعه ينفق، اللئيم، بنزول قطرات دمه!

لا يستطيع الذِّئب العيش في هذه الدنيا من دون أن يسلب الآخرين حياتهم، هنا تكمن مصيبته! لكنَّه لا يفهم ذلك. وإذا ما وصفوه باللئيم، فهو يصفهم باللؤماء أيضاً أولئك الذين يطاردونه، ويعتدون عليه، ويقتلونه. هل يدرك أنه بحياته يجلب الضرر إلى الآخرين؟ إنه يعتقد بأنه يعيش فحسب. إن الحصان يحمل الأثقال، والبقرة تدرُّ الحليب، والنعجة تنتج السلالة، أما هو فيمارس العربدة والقتل، في حين «يعيش» الحصان والبقرة والنعجة كل واحد حسب طريقته.

لكن حدث أن ظهر بين الذِّئاب واحد مارس القتل والعدوان، وفجأة حين دلف إلى الشيخوخة، بدأ يدرك أن في حياته أمراً ليس على ما يرام.

لقد عاش هذا الذِّئب في شبابه مطلقاً العنان لنفسه، وكان من الوحوش القليلة التي لم تتضوَّر جوعاً قط. وكان يمارس القتل والنَّهب والسَّلب ليلاً ونهاراً، وقد حالفه الحظُّ دوماً؛ فكان يسرق الخِراف من تحت أنف الرعاة، ويتسلَّل إلى باحات البيوت في القرية، ويذبح الأبقار، افترس مرة حارس الغابة، جالباً له الموت، واختطف صبياً صغيراً من الشَّارع تحت سمع الجميع وبصرهم، وحمله إلى الغابة. وقد تنامى إلى سمعه أنهم حقدوا عليه ولعنوه لقاء جميع هذه الأفعال، لكنَّه غدا أقسى وأكثر وضراوة.

راح يكرر قائلاً: لو سمعتم ما يجري في الغابة؛ لا تمرُّ دقيقة من دون أن تُرتكب واقعة قتل، ويصرخ أحد الوحوش قبل أن يفارق الحياة، فهل ينظر أحد إلى هذا؟

هكذا عاش ممارساً القتل والسَّلب بين الفينة والفينة، حتى بلغ السِّن التي يوصف فيها الذِّئب بأنه لم يعد «صلب العود». صحيح أنه أصبح ثقيل الحركة قليلاً، لكنَّه لم يتوقَّف لماذا هذا الجزاء بولد، بل على العكس، لقد بات أكثر ضراوة وقسوة. همه فقط ألا يقع صدفةً في قبضة الدبِّ. الدِّببة لا

تحبُّ الذئاب، لأنها تهاجمها في قطيع كامل. وغالباً ما تتردد في الغابة إشاعات حول أن الدُّبَّ، ميخايلو إيفانتش، أخطأ في مكان ما، فمزَّقت الذئاب -اللصوص الغبراء- فروته.

أمسك الدبُّ الذِّئب بمخالبه، وراح يفكِّر: «ماذا سأفعل بهذا النَّذل إذا افترسته وقبضت روحه؟ إذا خنقته وألقيت به جانباً فستنتشر في الغابة رائحة جثَّته النتنة. لكن دعنا ننظر فلربما يوجد لديه ضمير. إذا كان لديه ضمير، وأقسم بأنه سيكفُّ عن أفعال القتل والاعتداءات، فسأخلي سبيله». قال الدُّبُّ: ياذئب! هل يعقل أنك بلا ضمير؟

أجاب الذِّئب: ماذا تقول، يا صاحب السعادة، هل يمكن العيش ولو يوماً واحداً بلا ضمير في هذه الدنيا؟

- إذاً هذا ممكن ما دمت تعيش. فكِّر في كل يوم ربانـيٍّ ترد فيه أخبارٌ عنك فحسب: بأنك مزَّقت فروة، أو ذبحت، فهل هذا يشبه الضمير؟

- يا صاحب السعادة، اسمح لي بإبلاغك: هل يجب علـيَّ أن أشرب وآكل، وأطعم قرينتي الذِّئبة، وأربي صغاري؟ ما هو قرارك بهذا الشأن.

فكَّر الدُّبُّ، ميخايلو ايفانتش، طويلاً وقرَّر: ما دام الذِّئب يعيش في هذه الدنيا، فهو يتمتَّع إذاً بالحق في إطعام نفسه.

قال: يجب.

- لكنني لا آكل أيَّ طعام سوى اللحوم! لنأخذ مثالك، يا صاحب السعادة، فأنت تتمتع بأكل العنب البريِّ، وتتناول عسل النَّحل، وتأكل جريش الشوفان، في حين أنَّ هذا كله لا ينفعني. ثمة أمر آخر يا صاحب السعادة: ففي الشتاء، في فترة السُّبات، أنت ترقد في الكهف، ولا تحتاج إلى أي شيء آخر سوى مخالبك. أما أنا في الشتاء وفي الصيف لا توجد لحظة لا أفكِّر فيها بالطعام! أنا أفكِّر طوال الوقت باللحم. فكيف أحصل على هذا الطعام، إذا لم أذبح وأخنق؟

تأمَّل الدُّبُّ أقوالَ الذِّئب، ومع ذلك أراد أن يحاول.

قال: لكن افعل ذلك بصورة أقل قسوة إن جاز القول....

- أنا، يا صاحب السعادة، أفعل قدر استطاعتي، وأفعل بشكل أقل قسوة. إن الثعلب يقتنص الفريسة بصورة مملَّة: فهو يقفز ثم يبتعد.. ويقفز ثم يبتعد، أما أنا فأقبض على البلعوم، وكفى!

استغرق الدُّبُّ في التأمُّل أكثر؛ فهو يرى أن الذِّئب على حقٍّ، لكنه ما زال يخشى إطلاق سراحه، لأنَّه سيعود إلى ممارسة أفعاله الشائنة كالقتل والسَّلب.

قال: أعلن التوبة، ياذئب!

- لا يوجد، يا صاحب السعادة، شيء أتوب عنه. أنا لم أسرق شيئاً من أحد في حياتي. ما هو ذنبي؟

- أعط وعداً على الأقل!

- كما إنني لا أستطيع أن أعد يا صاحب السعادة. الثعلب مثلاً يمكن أن يعد بأيِّ شيء، أما أنا فلا أستطيع ذلك.

ما العمل؟ فكَّر الدُّبُّ، فكَّر ملياً، وأخيراً اتخذ قراره.

خاطب الدُّبُّ الذِّئب قائلاً: أنت وحش تعس جداً. هذا ما أريد قوله لك. أنا لا أستطيع إصدار حكم عليك، ولكنني أعرف بأنني أتحمل خطيئة كبيرة في روحي بالإفراج عنك. يمكنني أن أضيف شيئاً واحداً، لوكنت مكانك لما تعلَّقت بالحياة، ولاعتبرت الموت خيراً عميماً! فكِّر بأقوالي هذه!

وأطلق سراح الذِّئب في الأنحاء.

حالما تحرَّر الذِّئب من قبضة الدُّبِّ عاد فوراً إلى ممارسة أفعاله القديمة، وعانت الغابة الأمرين منه. وصار يهاجم القرى ذاتها: ذبح في الساعة الثانية أو الثالثة ليلاً قطيعاً كاملاً من البقر بلا معنى، وأفلت من المطاردة دون أن يلقى جزاءه. وهاهو يرقد على بطنه الممتلئ في المستنقع، ويتمطَّى بجسده، ويغمض عينيه نصف إغماضة، حتى إنَّ الدُّبَّ ولـيَّ نعمته، الذي لم يدر ظهره لأيِّ إنسان، طعنه من الخلف، ولم يسلم منه، على الرغم من أنه قد أشفق عليه، ولم يفعل له شيئاً، لكن لحسن الحظ، اكتفى بالتلويح له من بعيد مهدداً بقبضته فقط.

وهكذا واصل العربدة فترة طالت أم قصرت. في نهاية المطاف حان موعد الشيخوخة؛ لقد وهنت قواه، وفقد سرعة الحركة وخفَّتها، كما قصم أحد الفلَّاحين ظهره بضربة، ولزم وكره فترة من الزمن، ولم يعد كالسَّابق ذلك الوحش الشَّاطر، المتقد خفَّة ونشاطاً. طارد أرنباً لكن سيقانه لم تعد سريعة كالسَّابق، واقترب من طرف الغابة محاولاً اختطاف أحد الأغنام من القطيع، بيد أن الكلاب تقافزت ودارت حوله، فأرخى ذنبه، وهرب خالي الوفاض.

تساءل: هل يعقل أنني بدأت أخاف الكلاب؟

عاد إلى وكره، وراح يعوي. البومة تبكي نائحة في الغابة، أما هو فيعوي في المستنقع.

آلام ربانية، أيُّ هرج ومرج سيثاران في القرية!

لقد حدث مرة أن اقتنص حملاً، وسحبه رأساً على عقب إلى الغابة. علماً بأن الحمل نفسه لم يكن جيِّد الفهم: فبينما كان الذِّئب يسحبه بدا أنه لا يفقه من الأمر شيئاً، وراح يردِّد: «ما هذا؟ ما هذا؟».

فاحتدم غضب الذِّئب: سأريك ما هذا... ياسسسافل!

- ياعم! أنا لا أريد التنزّه في الغابة! لن أذهب، ياعم، لن أذهب! فجأة حدَّس الحمل الأمر، وأطلق إما مأمأة وإما صرخة: آخ، أيها الراعي، أيها الراعي! آخ، الكلاب! الكلاب!

توقَّف الذِّئب عن الحركة وأصاخ السَّمع. لقد افترس في حياته الطويلة الكثير من الحملان، وكانت جيمعاً غير مبالية بما يحدث لها، فحالما يقبض على الحمل تجده يغمض عينيه، ويرقد بلا حركة، كما لو أنه يؤدِّي فريضة طبيعية. أما الصَّبي، فانظر كيف كان يصرخ باكياً، يريد البقاء على قيد الحياة! آخ، يبدو أن الحياة العديمة المعنى حلوة لدى الجميع. أما هو الذِّئب فقد غدا عجوزاً، ولكنه يتمنَّى أن يعيش مئة عام!

تذكَّر أقوال الدب توبتيجين: «لو كنت مكانك لاعتبرت الموت وليس الحياة خيراً عميماً.. ». ولم؟ لماذا تعدُّ الحياة بالنسبة لجميع الكائنات الأخرى في الأرض خيراً، أما بالنسبة له فهي لعنة وعار؟

لم ينتظر الجواب، بل أطلق سراح الحمل، ومضى بذيل مسبل إلى وكره، من أجل إمعان الفكر في وقت الفراغ.

لكن هذا العقل لم يوضح له أيَّ شيء باستثناء ما كان يعرفه منذ وقت بعيد، وبالذات: أنه لا يمكن أن يحيا بطريقة غير طريقة القتل والسَّلب.

انبطح على الأرض، وماكان بوسعه الاضطجاع بشكل آخر. العقل يملي شيئاً، أما الطبع فيملي شيئاً آخر. إن الأمراض قد أضعفته، وسلبته الشَّيخوخة قدراته، وعذَّبه الجوع، لكنه لا يستطيع السَّيطرة على نفسه كالسَّابق. راح يتردَّد في أذنيه صراخ: «ملعون! قاتل! قاتل!فتَّاك!». وما معنى أنه لا يشعر بأيِّ ذنب؟ ومع ذلك يمكن التخلُّص من الملعون! أوه، يبدو أن الدُّبَّ على حقٍّ، لم يبق لديه خيار سوى أن ينهي حياته بنفسه!

لكن تواجهه هنا -أيضاً- مصيبة: إن الوحش لا يستطيع حتى أن ينتحر، ولا يمكن أن يحدث شيء بذاته: لا تغيير على نظام الحياة، ولا الموت. إنه يحيا كما في الحلم، وسيموت في الحلم أيضاً. ربما ستمزِّقه الكلاب إرباً إرباً، أو يطلق الفلاح الموجيك عليه النَّار، عندئذ سيشخر فقط، ويحبس التشنُّج أنفاسه، وستفارقه روحه فوراً. من أين جاء الموت، هذا ما لا يدركه عقله.

ربما سيقضي على نفسه بالجوع... لقد توقَّف عن مطاردة الأرانب، وبات يصطاد الطيور فقط، يصطاد غراباً فتياً، أو يخبط الفراخ في العش، مكتفياً بهذا فقط لإشباع بطنه. حتى الفراخ يتعالى صراخها عندئذ في جوقة مردِّدةً: «اللعين! اللعين! اللعين!».

اللعين بالذات. إذاً أنت تعيش فقط من أجل أن تقتل وتسلب؟ لنفترض أنهم يمطرونه باللعنات بلا وجه حق، وبصورة غير معقولة: لكنه لا يمارس سفك الدِّماء والسَّلب بإرادته، فكيف لا توجه إليه اللعنات! كم قتل من الحيوانات في حياته كلِّها! وما هو عدد النِّساء والرَّجال الذين ظلمهم، وجعلهم تعساء طوال حياتهم!

لقد عذّبته مثل هذه الأفكار خلال سنوات عديدة، وكانت تهدر في أذنيه كلمة واحدة: «اللعين! اللعين!اللعين!». كما إنه هو نفسه كان غالباً ما يردّد: «اللعين» بالذات! «اللعين» حقَّاً: القاتل والفتَّاك!. ومع ذلك فإن عذاب الجوع جعله يقدم على الاقتناص والقتل والتَّمزيق والافتراس.

عندئذ راح ينادي الموت: «ياموت! ياموت! حرِّرني أنت على الأقل من قتل الحيوانات والفلَّاحين والطيور! حررني أنت على الأقل من نفسي!» راح ينادي نهاراً وليلاً، وهو يتطلع إلى السماء. أما الحيوانات والفلَّاحون فكانوا يردِّدون لدى سماع عوائه: «السَّفاح! السَّفاح! السَّفاح!». لكنه لم يستطع الشكوى حتى إلى السَّماء بغية ألا تنهال عليه اللعنات من مختلف الأنحاء.

وأخيراً أشفق عليه الموت. فقد ظهر في المنطقة «اللوكاشيون»[2]، واستغلَّ أصحاب الأطيان في الجوار وجودهم من أجل اصطياد الذِّئب. وحدث مرة أن سمع الذِّئب، وهو راقد في وكره، صوتاً يدعوه، فنهض وخرج. رأى أمامه الطريق المطروق على مدى قرون، فسار خلفه وعلى جانبيه الفلَّاحون الموجيك، مقتفين أثره. لكنه لم يحاول الاختباء، بل سار مطرقاً رأسه للقاء الموت.. وفجأة صدمه شيء ما في رأسه بين عينيه.

- هذا هو... الموت المخلِّص!

العملاق

ولد في إحدى الممالك عملاق، أنجبته سعلاة شرَّبته، وأطعمته، واعتنت به، وعندما نما وأصبح فارع الطُّول، تقاعدت وذهبت إلى الصَّحراء، وتركته في الدُّنيا الواسعة، وقالت: «هيَّا أيها العملاق، اذهب واجترح المآثر». بالطبع، قبل أيِّ شيء، واجه العملاق الغابة. عندما شاهد إحدى أشجار البلُّوط، اجتثَّها من جذورها، ورأى أخرى منتصبة فاقتلعها بضربة من قبضته، في حين عثر داخل الشَّجرة الثالثة على تجويف، فتسلقها على الفور، ونام في التَّجويف.

بدأت غابة أشجار البلوط الخضراء تعاني من صوت شخيره. وهربت الحيوانات المتوحِّشة والطُّيور من الغابة. حتى إنَّ عفريت الغابة نفسه فزع، فولَّى هارباً مع العفريتة والعفاريت الصغار.

ذاع صيت العملاق في كل الأرض، ولا يزال الغرباء والأقرباء والأصدقاء وحتى الأعداء يعجبون لفعله: كان أهل الغابة يخشونه، لأنهم إذا لم يخافوه، كيف سيعيشون؟ زد على ذلك، أن ثمة أملاً بلا أدنى شكٍّ؛ فقد رقد العملاق في تجويف الشَّجرة، لكي يستجمع قواه بشكل أكبر. «سوف يستيقظ بطلنا، وسيمجده العالم أجمع». أما الغرباء فكانوا يقولون: «اسمعوا، يا له من أنين ونواحٍ انتشر في الأرض لا بدَّ أن العملاق ولد في عالم آخر! وسيذيقنا الأمرين حينما يستيقظ».

يسير الجميع حوله، على أطراف أصابعهم، وهم يكرِّرون بهمس: «نم أيها العملاق، نم!».

ثم مضت مئة عام، ومئتا عام، وثلاثمائة عام، وفجأة انصرمت ألف سنة كاملة. أخذت القوقعة تزحف وتزحف، وأخيراً وصلت إلى مبتغاها. راح طائر الزمير يتباهى ويتباهى، غير أنَّ البحر لم يحترق فعلاً كما زعم. سلقوا الموجيك حتى جفَّت أوصاله، ولم يعد ينفع لشيء وداعاً ياموجيك! ثم ثبتوا كلَّ شيء في مكانه، وأنجزوا كلَّ الأمور. سرق بعضهم ممتلكات بعضهم الآخر كلياً وانتهى الأمر. أما العملاق فما برح نائماً، يتطلَّع إلى الشَّمس من التَّجويف بعينين عليهما غشاوة، ويطلق شخيراً يتردَّد صداه لمسافة ألف متر ونيِّف.

تطلَّع الأعداء طويلاً، وأمعنوا التفكير فترة طويلة: «لابدَّ أنَّ تلك البلاد التي يخاف النَّاس فيها من العملاق جبَّارة. فقط لأنه ينام في فجوة الشَّجرة!».

لكنهم بدؤوا يفكرون شيئاً فشيئاً، واستعادوا في ذاكرتهم المرَّات الكثيرة التي تعرَّضت فيها البلاد إلى النوائب والخطوب، في حين لم يهبَّ العملاق ولو مرَّة واحدة لنجدة أهلها. وفي أحد الأعوام اشتدَّ العداء والخصام بين النَّاس، ولقي الكثيرون مصرعهم، وصار الشُّيوخ آنذاك يبكون بحرقة، ويدعونه بمرارة: «تعال، يا عملاق، وضع حدَّاً للخصومة بيننا!». لكنَّه عوض ذلك واصل النوم في التَّجويف. وفي أحد الأعوام أحرقت الشَّمس الحقول، ثم ضربها وابل من البرد، ففكَّر النَّاس أن العملاق سيأتي، ويطعم المسالمين، غير أنَّه واصل الاعتكاف في التَّجويف. وفي عام آخر التهمت النيران المدن والقرى، وفقد النَّاس المساكن والملابس والمؤن، وفكَّروا: «سيأتي العملاق وسيلبِّي حاجات المسالمين» لكنه ظلَّ نائماً في التَّجويف.

صفوة القول إن البلاد كابدت طوال ألف عام من جميع الأرزاء، لكن العملاق لم يحرِّك أذنه، ولم يرفَّ له جفن، لكي يعرف لماذا ينطلق الأنين في الأرض نحوه.

إذاً، أيُّ عملاق هذا؟

عانت البلاد كثيراً وطويلاً، وكان لديها إيمان به عظيم، لم تخفَّ حدَّته. كانت تبكي وتؤمن، وتئن وتؤمن. كانت تؤمن بأنه حين تجفُّ الدُّموع ويخمد الأنين سيجد العملاق اللحظة المناسبة وينقذها.

وقد حانت تلك اللحظة، لكنَّها لم تكن اللحظة التي انتظرتها «عامة الناس»؛ لقد هبَّ الأعداء وخرَّبوا البلاد، في حين واصل العملاق النوم في الفجوة. وأخيراً توجَّه الجميع إلى العملاق: في البداية اقترب أحدهم من الفجوة بحذر، وقد انبعثت منها رائحة نتنة، ثم اقترب آخر فشمَّ رائحة نتنة أيضاً. فقال الأعداء: «إن العملاق تعفَّن»، وهجموا على البلاد.

أظهر الأعداء قسوة بالغة لا تلين، فأحرقوا ودمَّروا وقتلوا كلَّ من وجدوه في طريقهم انتقاماً لخوف القرون الذي استثاره العملاق لديهم. اندفع النَّاس ذهاباً وإياباً، لدى حلول الفترة المظلمة، وهبُّوا لمقارعة الأعداء، لكنهم وجدوا أنَّهم بلا دعم، فتذكَّروا عندئذ العملاق، وردَّدوا بصوت واحد: «أسرع إلينا، ياعملاق، أسرع لنجدتنا».

عندئذ حدثت مفاجأة: لم يحرِّك العملاق ساكناً. وكما كانت الحال قبل ألف عام مضت؛ كان رأسه متجهاً بلا حراك نحو الشمس، وينظرُ إليها بعينين زائغتين، لكن لم ينطلق منه ذلك الشَّخير الشَّديد الذي كانت ترتعب منه غابة البلوط الخضراء.

جاء في تلك اللحظة إيفانوشكا الأحمق، فضرب الفجوة بقبضته، ووجد أن الأفاعي قد أكلت الجسد حتى العنق.

نم، ياعملاق، نم!

تريزور الكلب الوفي

عمل تريزور حارساً في عنبر الغلال التَّابع للغرفة التجاريَّة الثانية في موسكو عند التَّاجر فوروتيلوف، وتولَّـى حراسة محتويات العنبر بعينين يقظتين، ولم يترك بيت الكلب قطُّ: حتى إنَّه لم ير كما ينبغي المستودع الذي يقوم العنبر عليه. ومنذ الصباح حتى المساء يظلُّ مقيداً بالسِّلسلة يقفز وينبح بعنف على هذه الحال [3]Caveant consules!!

كان حكيماً؛ فلم ينبح على أهله قط، لكنه كان ينبح على الغرباء طوال الوقت. كان يحدث أن يأتي حوذيُّ التَّاجر ويسرق الشوفان، فترى تريزور يهزُّ ذيله ويفكِّر: هل يحتاج الحوذيُّ إلى الكثير من الشوفان! ويحدث -أيضاً- أن يمرَّ عابر سبيل بالقرب من الفناء لقضاء بعض شؤونه، فيسمع تريزوركا[4] من يقول: «آه، يا إلهي، اللصوص!».

شاهد التَّاجر فوروتيلوف الخدمة التي قدمها تريزوركا وقال: «هذا الكلب لا يقدَّر بثمن! وإذا حدث أن مرَّ التَّاجر في طريقه إلى المستودع بجوار بيت الكلب، فسيقول حتماً: «اعطوا تريزوركا النفايات!». أما تريزوركا فإنَّه يتهلَّل ابتهاجاً: «تسرُّني خدمتك يا صاحب السعادة خاما- آم. نم بهدوء يا صاحب السعادة.. خام.. آم.. آم!».

وقع مرَّة الحادث التالي: لقد جاء مدير الشرطة بشخصه إلى الفناء لزيارة التَّاجر فوروتيلوف، فنبح تريزوركا وهرَّ نحوه مثيراً ضجيجاً وعجيجاً، ما جعل ربَّ البيت وربَّة البيت والأطفال يهرعون جميعاً إلى المكان. اعتقدوا أن اللصوص جاءوا للسَّرقة، لكن لدى التطلُّع ملياً رأوا ضيفاً عزيزاً!

- يا صاحب السَّعادة! تفضَّل! تسيس، يا تريزوركا. ماذا تفعل ياوغد؟ ألم تعرفه؟ ها! يا صاحب السَّعادة! فودكا! تناول المقبلات.

- شكراً. لديكم كلب ممتاز، يا نيكانور سيميونتش! إنَّه طيب النيِّة!

- أيُّ كلب! أيُّ كلب هذا! بعض الرَّجال لا يفهمون كما يفهم هو!

- إذن هو يدرك ما هي الملكيَّة، وهذا، في زماننا، أمر يبعث على ما هو أكثر من المسرَّة.

ومن ثم التفت إلى تريزوركا، وأضاف قائلاً:

- انبح، ياصديقي، انبح! إن الرَّجل الذي يريد إظهار الجانب الممتاز في نفسه اليوم، يضطرُّ إلى النُّباح مثل الكلب.

اختبر فوروتيلوف تريزوركا ثلاث مرات قبل أن يأتمنه على ممتلكاته. ذات ليلةٍ تزيَّا بزيِّ لصٍّ (عجيب كيف يلائمه هذا الزِّي!)، اختار ليلة ظلماء جداً، وولج العنبر من أجل السَّرقة: في المرة الأولى أخذ معه قطعة من الخبز، وفكَّر بأنه سيغريه بهذه الوسيلة، لكن تريزوركا تشمَّمها، ثم قبض على بطَّة ساقه بعنف!وفي المرة الثانية رمى إليه قطعة كبيرة من السُّجق: «خذ، تريزوروشكا، خذ!» لكن تريزوركا مزَّق طيَّة جلبابه. وفي المرَّة الثالثة أخذ معه ورقة نقديَّة من فئة روبل ملطَّخة بالزَّيت، وفكَّر بأن الكلب سيأخذ الورقة النقديَّة، غير أن تريزوركا نبح وعوى بصوت عالٍ، جعل الكلاب في الحارة كلِّها تهرع إلى المكان، وتبدي عجبها لماذا يعوي الكلب على صاحبه.

عندئذ جمع التَّاجر فوروتيلوف جميع أفراد أسرته، ثم خاطب تريزوركا بحضورهم قائلاً:

- أأتمنك، يا تريزوروشكا، على جميع ما لديَّ: زوجتي، وأطفالي، وممتلكاتي، فتولَّى حراستها.! اجلبوا النفايات إلى تريزوركا!

هل فهم تريزوركا مديح صاحبه وثناءه، أم أنَّه، بحكم طبع الكلاب، ينطلق منه النباح، كما في برميل فارغ، لقد بات مكلوباً تماماً. إنه ينام بعين واحدة مغمضة، وبالأخرى يراقب إذا ما تسلَّل أحد ما من أسفل البوَّابة: عندما يتعب من التقافز يستلقي على الأرض، لكنه يظلُّ يصلصل بالسلسلة؛ بمعنى «هذا أنا هنا!». وإذا نسي أهل البيت إطعامه فإنَّه يبتهج جداً: إنَّ الكلب إذا تناول الطعام يوميَّاً فقد يكفُّ خلال أسبوع عن أن يصبح كلباً! وإذا انهال الخدم عليه بالضرب فإنه يعدُّ ذلك بمثابة تحذير نافع له، لأنَّه إذا لم يضرب الكلب فقد ينسى صاحبه.

قال تريزوركا في دخيلة نفسه: يجب التعامل معنا، نحن الكلاب، بصورة جادة، فلا بُدَّ أن نُضرب بسبب فعلة ما، وكذلك لا بدَّ أن نُضرب بلا سبب؛ عبرة للمستقبل! عندئذ نصبح نحن الكلاب كلاباً حقيقيين!

صفوة القول: كان كلباً صاحب مبادئ، وثمَّن كل التثمين رايته. إنَّ الكلاب الأخرى تتطلَّع وتتطلَّع عبثاً، كما أنها تنكِّس ذيولها. فأين أنت من هذا كلِّه!

لقد أحبَّ تريزوركا الأطفال حبَّاً جمَّاً، لكنَّه لم يسمح لهم بملاطفته. يدنو منه أبناء ربِّ البيت:

- لنذهب ياتريزوروشكا للنزُّهة معاً!

- لا أستطيع.

- لن تتجرأ؟

- المسألة ليست أنني لا أتجرأ، بل لا يحقُّ لي ذلك.

- لنذهب أيها الغبي! سنذهب خفية!.. ولن يرانا أحد!

- والضَّمير؟

ينكِّس تريزوركا ذنبه، ويدخل إلى بيته، ويبتعد عن الإغراء.

تآمر اللصوص مراراً قائلين: «دعنا نجلب إلى تريزوركا ألبوماً فيه صور منطقة زاموسكفوريتشيه»، غير أنَّه لم يستسلم لهذا الإغراء أيضاً.

وقال: أنا لا أحتاج إلى أيِّ صور ومشاهد، فأنا ولدت في هذا الفناء، وستوارى عظامي العتيقة فيه! انصرفوا بعيداً عن الخطيئة!

كانت إحدى نقاط ضعف تريزوركا هو أنه أحبَّ الكلبة كوتكا حباً شديداً، لكن ليس دائماً، وإنَّما في بعض الأحيان.

عاشت كوتكا في ذلك الفناء أيضاً، وقد كانت كلبة طيِّبة، لكن بلا مبادئ. إنها تنبح، ثم تكفُّ عن النُّباح، ولهذا لم تُربط بسلسلة. كانت تعيش في غالب الأحيان فـي مطبخ السَّادة، وتلفُّ وتدور بالقرب من أطفال السيِّد، وقد ذاقت طوال حياتها الكثير من الطعام الحلو، ولم تتقاسمه مع تريزوركا قط، بيد أنَّ تريزوركا لم يطمع، ولم يحاسبها على ذلك، فهي «سيِّدة»، ويجب أن تتناول الحلو من الطعام! لكن عندما صار قلبها يحدِّثها في العشق أخذت تهرُّ بصوت خافت، وتخبط باب المطبخ بمخلبها. وعندما سمع تريزوركا هذا الهرير الخافت راح ينبح بصوت عالٍ، ذلك النباح المميَّز، ما جعل ربَّ البيت، الذي يدرك مغزاه، يهرع إلى صيانة ممتلكاته، فأطلق سراح تريزوركا، وقُيِّد نيكيتا بالسلاسل بدلاً منه، فانطلق تريزوركا مع كوتكا بابتهاج وبسعادة للتنَّزه عند بوابة سيربوخوف.

كان مزاج التَّاجر فوروتيلوف في تلك الأيام عكراً، وعندما عاد تريزوركا من النزهة في الصَّباح انهال عليه بالضَّرب المبرح بلا رحمة بالذِّراع الذي يقاس به القماش. ويبدو أن تريزوركا قد أدرك ذنبه، ولهذا فإنه لم يعارض سيِّده، بل أقبل نحوه برضا مثلما يفعل الموظفون الذين يؤدُّون واجبهم، كما زحف نحو قدميه بمذلَّة منكِّساً ذيله، ولم ينبح من الألم تحت ضربات التَّاجر، بل نبح بصوت خافت: «Mea culpa!mea culpa!»[5]. في الواقع لقد كان ذكيَّاً جداً بحيث لا يفهم أن سيَّده إذ سلك هذا المسلك حياله، فلأنه تغافل عن بعض الظروف المخفِّفة. لكنَّه في الوقت نفسه فكَّر بصورة منطقيَّة، وخلص إلى استنتاج مفاده: أنّه إذا لم يُعاقب بالضرب في مثل هذه الأحوال، فإنه سيفقد وضعه ككلب حتماً.

لكن الأمر الثمين، على الأخص، في تريزوركا هو عدم اتصافه بحب الرفعة وبُعد الهمَّة. وهو لا يعرف إذا كان لديه حتى مفهوم الأعياد. كان التَّاجر عادة يقدِّم في أيام الأعياد الهدايا إلى خدمه المخلصين. نيكانور (يكرم في عيد قدِّيسه «نفسه») وأنفيسا (في عيد قديسها «نفسها»)[6]، أما هو فيبقى في الفناء كما في الأيام العاديَّة، يتقافز بالسَّلاسل.

تصرخ فيه أنفيسا كاربوفنا: اسكت، يا كريه! أو تعرف أيَّ يوم هذا؟

ويجيبها نيكانور سيميونتش مازحاً: دعيه ينبح! إنه يقدم التهاني بمناسبة عيد القدِّيس! انبح يا تريزوروشكا، انبح!

حدث ذات مرة أن استيقظ فيه نوع من عزَّة النفس، وذلك عندما علِّق الجرس في عنق روخله، بقرة السَّيد النطَّاحة، بطلب من راعي المدينة. لابدَّ من الاعتراف بأنَّه حسدها حينما تبخترت في أرجاء الفناء مع رنين الجرس.

فقال مخاطباً روخله بمرارة: أي سعادة أنعموا بها عليك، ومقابل أي شيء؟ إن فضلك الوحيد هو أنك تدِّرين نصف دلو من الحليب في اليوم، ولكن أي خدمة حقيقيَّة هذه؛ الحليب لديك يدرُّ مجاناً، ولا يتوقَّف الأمر عليك؛ فإن أطعموك جيداً تدرين الكثير من الحليب، وإن أطعموك بصورة سيئة ستتوَّقفين عن إدراره. أنت لا تبذلين أيَّ جهد، ولا تضربين الظلف بالظلف، من أجل خدمة السيِّد، ومع ذلك يُنعمون عليك بمثل هذا التَّكريم! أما أنا [7] moto proprio فأُجهد نفسي نهاراً وليلاً، ولا أتناول ما يكفي من الطَّعام، ولا أنال قسطاً وافياً من النوم، وأحياناً يبحُّ صوتي من القلق، ورغم ذلك يرمون لي قليلاً من الفتات! خذ ياتريزوركا، واعرف أن خدماتك معترف بها!

أجابت روخله: والسِّلسلة؟

- السِّلسلة؟!

عندئذ فقط أدرك، فقد ظلَّ حتى الآن يعتقد أن السِّلسلة هي القيد، لكن تبيَّـن أنها تشبه الشارة الماسونية، ومعنى ذلك أنه جرى تكريمه منذ البداية، قبل أن يقدِّم أيَّ خدمة، ويتعيَّـن عليه الآن أن يحلم فقط باستبدال السِّلسلة القديمة التي لحقها الصَّدأ (وقد قطعها مرة) بأخرى جديدة قويَّة.

أما التَّاجر فوروتيلوف فقد بدا كما لو أنه سمع رغبته المتواضعة الطموحة، فاشترى عشية عيد تريزوركا سلسلة جديدة تماماً، مصنوعة بمهارة، وربطها بالطَّوق في عنق تريزوركا وقال: «انبح، ياتريزوركا، انبح!».

راح تريزوركا ينبح نباحاً لطيفاً وصدَّاحاً، كما تنبح الكلاب التي لا تفصل سعادتها عن صيانة العنبر الذي ربطته يد التَّاجر به.

عموماً كانت حياة تريزوركا ممتازة، ولو أنَّه كان يعاني بين فترة وأخرى من بعض المنغِّصات. ففي عالم الكلاب، كما في عالم البشر، غالباً ما يلعب المكر والحسد دوراً لا ينتمي حقاً إليهم. وقد عانى تريزوركا مراراً من وخزات الحسد، لكنه كان يدرك إدراكاً تاماً الواجب الملقى عليه، ولا يخاف أيَّ شيء. ولم يكن هذا كلُّه من جانبه من باب الاعتزاز بالنفس، بل العكس فقد كان مستعداً لمنح الشرف والمكانة لأيِّ كلب يثبت أحقيَّته في كونه لا يُغلب في المنافسة. وغالباً ما كان يفكِّر بقلق كيف سيتخلَّى عن مكانته في اللحظة التي ستطرح الشيخوخة أو الموت أمامه حدود قدرته...

ولكن، وأسفاه! فمن بين جميع قطيع الكلاب المنحطّة والنَّابحة القاطنة في «المسلخ»، لم يجد بحق، وباسم الضمير، كلباً واحداً يمكن أن يشير إليه بثقة قائلاً: «هذا خليفتي!». لذا فحينما دُبِّرت الدسيسة، وكان الهدف منها إسقاط مكانة تريزوركا لدى التَّاجر فوروتيلوف، لم تحقق سوى نتيجة واحدة فقط، علماً أنه لم يرغب فيها قط: فقد أظهرت هذه النتيجة الإدانة الشاملة لمواهب الكلاب.

لقد احتشدت الكلاب الهجينة مراراً في فناء بيت التَّاجر فوروتيلوف، ورابطت بالقرب منه، جماعات ووحدانا، ودعت تريزوركا إلى المباراة. وقد تعالى عندئذ نباح الكلاب وهريرها، ما أثار الرُّعب في جميع أهل البيت، وقد أصغى إليه ربُّ البيت بفضول، لأنه كان يدرك أنَّ الزمن الذي سيحتاج فيه تريزوركا إلى معين يدعمه قد اقترب. برزت في هذه الجوقة الصَّاخبة بغضب أصوات عدائية، لكن لم يكن بينها ما يولد الفزع بغتة، فيصاب البطن بالوجع. أظهر أحد الكلاب قدرات فذَّة، غير أنَّه توقَّف عن النباح ولم يكرِّره. عادة كان تريزوركا خلال مثل هذه المباريات يلتزم الصَّمت، كما لو أنَّه يريد إعطاء غريمه الفرصة لقول ما يريد، لكنَّه في نهاية المطاف لايطيق صبراً، وينظم إلى النباح الجماعي، الذي تدلُّ كل نوتة فيه على التوتُّر المصطنع، فينضمُّ عواؤه الحرُّ الصدَّاح إلى نباح الآخرين، وقد أزال هذا النباح فوراً جميع الشُّكوك. كانت الطباخة تهرع لدى سماع النباح من المطبخ، وتسمط مدبري الدسيسة بالماء الساخن، في حين تجلب النفايات إلى تريزوركا.

مع ذلك كان التَّاجر فوروتيلوف على حقٍّ حين أكَّد أنّ لا شيء يبقى إلى الأبد تحت القمر. ففي صباح أحد الأيام لاحظ أحد العاملين في خدمة فوروتيلوف، لدى مروره ببيت الكلب، أن تريزوركا نائم، وهذا لم يحدث له قط. فهل نام في وقت ما، أغلب الظنِّ أنَّه نام، هذا ما لا يعرفه أيُّ أحد، علماً أن أيَّ أحد لم يره نائماً. لا ريب في أن العامل أبلغ سيِّده بهذا الحادث العابر.

خرج فوروتيلوف بنفسه إلى تريزوركا، وألقى نظرة عليه، فوجده يهزُّ ذيله اعترافاً بذنبه، كما لو أنّ لسان حاله يقول: «أنا نفسي لا أعرف كيف ارتكبت هذه الخطيئة!». قال التَّاجر له بلا غضب وبصوت ينم عن التعاطف التَّام:

- ماذا ياشيخ، هل اعتزمت الذهاب إلى المطبخ؟ لقد أصبحت عجوزاً، وضعيفاً؟ حسناً، إنك تستطيع أن تخدم في المطبخ أيضاً.

تقرَّر في البداية الاكتفاء بالبحث عن مساعد لتريزوركا. لم تكن المهمة سهلة، عُثر بعد أعمال بحث كبيرة عند بوابة كالوجا على الكلب المدعو أرابكا، وكان قد اكتسب سمعة قويَّة.

أنا لن أصف كيف اعترف أرابكا أولاً بمكانة تريزوركا، وخضع له بلا اعتراض، وكيف ربطتهما وشائج الصداقة، وكيف نُقِل تريزوركا بمرور الزمن إلى المطبخ، وكيف كان على الرغم من كل شيء يذهب إلى أرابكا، ويعلِّمه بنزاهة أصول خدمة الكلب التَّابع للتَّاجر... وأقول شيئاً واحداً فقط: لا الاسترخاء والراحة، ولا وفرة الطعام اللذيذ، ولا القرب من كوتكا، أرغم تريزوركا على نسيان لحظات الإلهام التي كان يقضيها، لدى جلوسه مقيداً بالسِّلسلة مرتجفاً من البرد في ليالي الشِّتاء الطويلة.

ومضى الزمن، ودلف تريزوركا إلى الشيخوخة أكثر فأكثر، وظهرت على رقبته حوصلة، جعلت رأسة ينحني نحو الأرض، ما جعله يجد صعوبة في النهوض والوقوف على سيقانه، ولم تعد عيناه تريان شيئاً تقريباً، وغدت أذناه بلا حراك، وتلبَّد شعره، وبهت لونه وترهَّل جسده، وفقد الشَّهية، وصار تدريجياً يشعر بالبرد، ما جعل الكلب المسكين يلتصق بالمدفأة.

حدث مرة أن قالت الطباخة لفوروتيلوف:

- الرأي رأيك يا نيكانور سيميونتش، لكن أحوال تريزوركا تتدهور.

في هذه المرة لم يقل التَّاجر فوروتيلوف كلمة واحدة. بيد أنَّ الطباخة لم تستسلم، فقالت بعد أسبوع:

- أخشى أن يلحق بالأطفال أذى جرَّاء قربهم من تريزوركا؛ فقد أصابه الجرب كلياً.

لكن فوروتيلوف لزم الصمت هذه المرة أيضاً. وبعد يومين جاءت الطباخة مسرعة، وقد اشتدَّ اضطرابها معلنةً أنها لن تبقى دقيقة واحدة إذا لم يخرجوا تريزوركا من المطبخ. وبما أنَّ الطبَّاخة كانت ماهرة في صنع طبق لحم الخنزير بالعصيدة، وكان فوروتيلوف يحبُّ جداً هذا الطبق، فقد تقرَّر مصير تريزوركا.

قال فوروتيلوف بإشفاق: إنني لم أدرِّب تريزوركا لهذا، ويبدو أن القول المأثور: الكلب يموت ميتة الكلب، صحيح مثلما يبدو.. أغرقوا تريزوركا!

وهكذا أخرجوا تريزوركا إلى الفناء، وخرج جميع أهل البيت لرؤية كيف سينازع الكلب الوفـيُّ سكرات الموت، حتى أطفال ربِّ البيت تجمعوا على النوافذ. وقف أرابكا هناك، ولدى رؤية معلِّمه القديم هزَّ ذنبه مرحِّباً. كان تريزوركا يحرِّك سيقانه بصعوبة لشيخوخته، ويبدو أنه لم يدرك ما يحدث. لكنَّه عندما اقترب من البوابة خذلته قواه، فتوجَّب جرُّه من قفاه.

ماذا حدث بعد ذلك؟ التاريخ يصمت عن ذلك، لكن تريزوركا لم يعد إلى البيت.

وسرعان ما أقصى أرابكا ذكرى تريزوركا من قلب التَّاجر فوروتيلوف نهائياً.

الضَّبع
(عبرة)

القِ نظرة على أي مرجع في علم الحيوان، وانظر إلى صورة الضَّبع. إنَّ «بوزه» المدبَّب نحو الأسفل لا يدلُّ على أيِّ دهاء، ولا على أيِّ مكيدة، ناهيك على قسوة الطَّبع، حتى إنَّه يبدو ظريفاً.

يترك الضَّبع مثل هذا الانطباع الجيِّد بفضل عينيه غير الكبيرتين اللتين تشعان ألقاً طيباً. أما لدى الحيوانات الأخرى ذوات البوز المدبَّب فالعيون صافية، وسريعة، ومتألِّقة، والنظرة حادَّة وشهوانيَّة. في حين أنَّ العيون لدى الضِّباع فاترة ونديَّة، والنظرة تفيض طيبة، وتدعو إلى الثقة. توجد لدى الرهبان الكاثوليك مثل هذه العيون المترعة بالحنان حين يجتمعون لتلاوة ad majorem Dei glorim[8]، ويبحثون عن الوجدان لدى الرعيَّـة. أو كما لدى الموظفين الذين يؤتمنون، بسريَّة تامَّة، على استنساخ قوائم أسماء الذين سيكرَّمون في الأعياد، فيبتسمون للجميع على حدٍّ سواء، بغية أن يبعثوا لديهم الأمل، وفي الوقت نفسه يحافظون على سرِّ الدولة.

قد يعتقد بعضهم أنَّ هذه الصُّورة تخصُّ أحد الضِّباع التي انتشرت سمعة سيئة عنها منذ قديم الزَّمان؟!

عدَّ القدماء الضِّباع من الكائنات الخارقة للطبيعة، ونسبوا إليها قوَّة السَّحرة. إنَّ هذه النظرة إلى الضَّبع ما زالت سائدة إلى يومنا هذا بين أهالي البلدان التي يعيش فيها هذا الحيوان. واعتماداً على أقوال الباحث بريم فإن العرب المحليين يؤمنون بأن الفرد يصاب بالجنون إذا تناول مخَّ الضَّبع، وأن السَّحرة يستغلُّون ذلك من أجل إلحاق الأذى بالأفراد الذين يكنون لهم الحقد. زد على ذلك أنَّ العرب على قناعة بأنَّ الضِّباع ليست سوى سحرة مستترين، تظهر في النهار بصورة إنسان، وتتخذ في الليل هيئة حيوان، تجلب الهلاك إلى الأرواح المؤمنة.

وواضح أنَّ هذه الخِرافات بعيدة عن الحقيقة مثل الخِرافات التي سمعتها من زوجة تاجر فـي زاموسكفوريتشيه: «أنا أعرف أن الضَّبع يظهر فـي النهار بهيئـة إنسان يستقبل الضيوف الأعزَّاء، ولكن حالما
يحلُّ الغسق، يمسك بالقلم، ويبدأ، وهو على هيئة ضبع، «بكتابة جريدة»... أيُّ سخف هذا!

بالمناسبة سأشير إلى الضَّبع المخطَّط. لقد اتخذ بريم منه موقفاً متسامحاً جداً، ولو أنَّه، طبعاً، لم يجد فيه أي فضائل مميَّزة. لكن لا يوجد بين الحيوانات عموماً أيُّ أصحاب فضل أو نبوءات، لديها فقط صفات. وحسب شهادة بريم فإنَّ عويل الضَّبع المخطَّط نفسه ليس كريهاً جداً بحدِّ ذاته، كما يقول الرواة، وأنَّه غالباً ما يتسلَّـى بالاستماع إليه، بل على العكس إنَّ عواء الضَّبع المخطَّط يتَّسم فعلاً

بطابع «قهقهة فظيعة، تجعل كلَّ روح مؤمنة، ذات خيال متَّقد، تنسبه بكلِّ يسر إلى الشيطان وزبانيته الجهنَّميين». ولهذا لدى مطالعة الأجراس تسمع قهقهة فظيعة، يمكن «أن تنسب إلى الشيطان»، لكنَّها تنسب إلى الضَّبع المرقَّط، وهذا الصِّنف من الضِّبّاع هو الأخطر والأكثر حقداً من بين جميع الأصناف.

لا توجد لدى بريم أيُّ معلومات حول هذا الصِّنف من الضِّبّاع، ويجب القول عموماً إنَّ حديثه عن الضِّبّاع مشوَّش إلى حدٍّ ما، ومردُّ هذا التشوش بالذات أنَّ هذا الصِّنف من الضِّبّاع النقيضة قد أفلت منه. ولحسن الحظ أنه لم يفلت من اهتمام زوجة التَّاجر من زاموسكفوريتشيه التي أشرت إليها آنفاً، ورأت بعينيها هذا الضَّبع فعلاً.

لقد روت قائلة: انظروا إليه كم هو ظريف! وكيف سيبدأ بالقبع والقهقهة.. إنه يقهقه، ويقهقه، وبغتة يشكو باكياً... يا إلهي، خلِّصني وارحمني!

لا مراء في أن بريم يقصد ذلك الصِّنف حين يقال إن الضِّبّاع ذوات أصوات حادة كريهة، وتنبعث منها رائحة بغيضة، ولدى تناول الطعام تتأوَّه وتصرخ وتقهقه بصوت عالٍ، فتجعل الأشخاص الذين يؤمنون بالأوهام يعتقدون أن جميع شياطين جهنَّم قد أصابها مسٌّ من الجنون. زد على ذلك أنَّ هذا الضَّبع يهاجم فقط الضعفاء والنائمين والمساكين الذين لا يتمتعون بحماية (طبعاً، الأفضل حين تكون الفريسة مربوطة). فهي غالباً ما تعرِّج على البيوت، وتخطف الأطفال الصِّغار.
وعموماً الأطفال الصِّغار هم اللقمة السَّائغة للضّباع - النقيضة. تلج في الليل مسكن المامبوكيين[9]، وتمرُّ بمحاذاة العجول من دون أن تمسَّها بأذى، وتخطف الأطفال من تحت لحف الأمهات النائمات.

لا توجد صعوبة في اصطياد الضَّبع حياً، ولهذا فإنَّ أصحاب حدائق الحيوان كانوا يقتنونها بأسعار بخسة، ويضعونها في الأقفاص أمام الجمهور، ويرقد الضَّبع الحبيس في القفص طوال ساعات على جنبه، مثل كتلة خشبية، وبغتة ينهض وينظر بهيئة غبية للغاية، ثم يحكُّ جلده بالقفص، ويبدأ بالقهقهة بين الفينة والفينة، كأنّه يغرسها في نخاع العظام.

وطبقاً لشهادة بريم فإنَّ خُبث الضَّبع يعدل جبنه. حدث مرة، أن رقد بريم للمبيت مع رهط من رفاقه على ضفاف النهر الأزرق، وفجأة ظهر ضبع بالقرب من شعلة النار، وبدأ يردد أغنيته المزعجة المألوفة. لكن حالما صارت الجماعة تقهقه ردَّاً على الأغنية، فزع الضَّيف الثقيل، وولَّى الأدبار فوراً. وحدث مرة أخرى في مدينة سينار أن عاد بريم في منتصف الليل إلى بيته من ضيافة بعض الأصدقاء، فلقي في أحد شوارع المدينة قطيعاً من الضِّبّاع، وكان رمي حجر واحدٍ عليها كافياً لطرد القطيع كلِّه.

يمكن ترويض الضَّبع. طبعاً هذا الأمرغير ممتع، لكن مثل هذه المحاولات لا تخلو من فائدة في مجال إجراء دراسة وافية لعادات هذا الحيوان وطباعه. يمكن ترويضه بكلِّ سهولة: يجب اللجوء فقط إلى ضربه بالعصا باستمرار، ورشِّه بالماء البارد. وقد روى بريم أن الضِّبّاع المروَّضة بهذا الشَّكل، تحت إشرافه، كانت تعوي بفرح، وتبدأ بالقفز حوله، وتضع قوائمها الأمامية على كتفيه، وتتشمَّم وجهه، وأخيراً ترفع ذيولها إلى الأعلى، وتبرز أمعاءها من فتحة الشَّرج لمسافة إنش

ونصف أو إنشين. صفوة القول إن الإنسان قد انتصر هنا كما في كل مكان، لكن إبراز الأمعاء شيء لا لزوم له.

بالمناسبة إنّ رؤية ابتهاج الضَّبع أمر له مغزى أيضاً...

قد يسأل القارئ: «ماذا تعني هذه الحكاية ولأيِّ غرض كتبتها؟». لقد رويتها لكي أظهر بجلاء أن الجنس «البشريّ» يجب دوماً أن ينتصر على جنس «الضِّباع» حتماً.

يبدو لنا أحياناً أنَّ جنس «الضّباع» موجود في العالم أجمع، وهو ينشر جناحيه على اليمين واليسار، ويخنق جميع الأحياء. وغالباً ما تحدث هذه الأمور الخارقة للطبيعة، وتتكرَّر في كل مكان تتردَّد فيه قهقهة الشيطان وزعيقه، وتتعالى من أعماق الظلام صرخات داعية إلى الحقد والخصام والفتنة، وينحطُّ كل ما هو حي في رعب بلا حساب، وتتجمَّد كافة المبادرات الروحيَّة تحت وطأة فكرة فظيعة واحدة: القضاء على الطيبة، القضاء على الجمال، القضاء على البشريَّة! ثمة حجاب كثيف يغطِّي كلَّ شيء ويخيِّم عليه إلى الأبد من جنس الضِّباع الكريه والزائف.

لكن هذا ضلال عظيم وإجرام؛ فالجنس «البشريُّ» لم يدمَّر إلى الأبد، ولم يكفَّ لهيبه عن التألُّق قط! إنه يواصل التلَّظي تحت رماد الجنس «الضِّباعي» الذي حجبه مؤقَّتاً.

لن يهلك، ولن يكفَّ قبسه عن التألُّق أبداً! ولكن من أجل أن يحقِّق النصر لا بدَّ من توفرُّ شيء واحد فقط: أن يستنير القلب والعقل بالوعي، فجنس «الضِّباع» لا يتَّسم بسمات السَّحرة التي تنسبها إليه الخِرافات المجنونة والحاقدة. وحالما تتمُّ هذه الاستنارة، لن تكون ثمة حاجة إلى ترويض «الضَّبع» لماذا؟ ومع أنَّه لا يكفُّ عن نشر رائحته النتنة، ومشاغل الترويض كثيرة، فإنَّه سيبتعد شيئاً فشيئاً إلى الأعماق، حتى يبتلعه البحر في نهاية المطاف، مثلما ابتلع في قديم الزَّمان قطيع الخنازير.

الغُراب - صاحب العريضة

يشعر الغُراب العجوز بألم دائم في قلبه، إذ يجري إهلاك عشيرة الغربان، ويفعل ذلك كلُّ من هبَّ ودبَّ. وهم لا يفعلون ذلك من أجل المنفعة ولو لمرة واحدة، وإنَّما يفعلون ذلك لمجرد التسلية. كما أنَّ الغربان نفسها صارت جبانة. ولا مجال للحديث عن نعيق الغربان السَّابق، فقد أصبح في طيِّ النسيان. كان يجتمع حشد الغربان فوق شجرة البتولا ويبدأ بالنعيق عبثاً: «ها نحن هنا!». والآن تطلق النار - باف!- فيسقط عشرة غربان أو عشرون غراباً، ولا يبقى من السرب أحد. كما لا تتوفر موارد طعامٍ كما في السَّابق؛ فقد قطعت أشجار الغابات في كل مكان، وجففت المستنقعات، وطوردت وحوش الغاب، ولم يعد ممكناً الحصول على الطعام بطريقة شريفة. بدأت الغربان بالتسلُّل إلى الحقول والبساتين وزرائب الماشية، فأطلقت النار مجدداً - باف!- ومجدداً يخرُّ عشرة غربان أو عشرون غراباً في السرب صرعى. لحسن الحظ أن الغربان تتَّسم بالجبن، وإلا فمن كان سيدفع الجزية إلى الصقور والعقبان.

يقول شيخ الغربان مخاطباً الجيل الأصغر سناً: «لا تنعقي بلا معنـى! لا تتسللي إلى حقول الغير!»، ويتلقى جواباً واحداً: «أنت، أيها العجوز الثقيل الظلِّ لا تفهم شيئاً في الأوضاع الجديدة! لا يجوز في الأوضاع الراهنة عدم ممارسة السرقة. ينصُّ العلم على أن المرء يجب أن يدبِّر أمور معيشته بهذه الوسيلة، الجميع يعيشون الآن بهذه الطريقة إن لم يتوفَّر ما يسدُّ الرَّمق. الجميع الآن يعيشون بهذه الطريقة، إنهم لا يعملون، بل يتحايلون في كسب لقمة العيش. فهل ينبغي علينا أن نموت جوعاً! نحن نستيقظ بحلول الفجر، ونغادر الأعشاش ونجوب الغابة كلَّها، فلا نجد شيئاً يؤكل؛ فكلُّ الأماكن خواء، لا توجد ثمار في الغابة، واختفت صغار العصافير وصغار الحيوانات، حتى الدودة اختبأت تحت الأرض».

أصغى شيخ الغربان إلى هذه الأقوال، واستغرق في التأمل العميق، واستعاد في ذاكرته الأزمنة العجاف، فقد شهدت عشيرة الغربان سنوات عوز وجوع، وهلك عدد لا يعدُّ ولا يحصـى من الغربان. لكن ظهرت آنذاك القاعدة التالية: إذا كان لديك مخلب فمزِّق صدرك، ولا تمـسَّ طعام الغير! ولكن لوحظ آنذاك أيضاً أن الغُراب لن يصمد فترة طويلة حيال هذه القاعدة، ففي الوقت الذي كان يرى فيه الآخرين يتمتعون بالحياة الرغيدة كان عليه أن يهلك من الجوع. إن قلب أيِّ كائن يصيبه السَّقم لدى التفكير في ذلك.

بالمناسبة، لقد هبَّ العلم للمساعدة؛ فهو ينص على: التقط بمنقارك كلَّ ما تستطيع وأينما تستطيع! إذا ما تسنى لك ملء حوصلتك فحلِّق حراً وأنت شبعان وفرحان. أما إذا لم يتسنَّ لك ذلك فلتتلق مصرعك بطلقة في البستان، ولتبق معلقاً هناك بدلاً من الفزاعة؛ فهذا هو قانون الحرب.

عندما جلبه الأب العجوز إلى هنا من وراء البحار، وكان قد بدأ ريشه للتوِّ بالنمو، كانت الفيافي هنا خالية، والغابات والمياه تنداح إلى ما لانهاية على مدى البصر. وكانت تتوافر في الغابات أصناف الثمار المختلفة، وشتَّى أصناف الحيوانات والطيور بوفرة، وكذلك الأسماك أيضاً. كان الصقر هو الرئيس عندهم، كما هو الحال الآن، لكن الصقر في تلك الأيام كان يجد ما يكفيه لحدِّ الشبع، كما كان بسيطاً في التعامل، إذ تُروى حتى الآن فكاهات حول بساطته. حقاً، لقد كان مولعاً بالتلـذُّذ في

التهام الغربان الصغيرة. لكنَّه التزم جانب العدل في هذا المجال: اليوم يختطف غراباً صغيراً من العش، وغداً يخطف آخر، ولكنَّه عندما يرى أن العشَّ فقير ينصرف من دون أن يمسَّه. علماً أن الإتاوة آنذاك لم تكن ثقيلة: فقد كانت تؤخذ بيضة من كلِّ عشٍّ، وريشة من كلِّ جناح، ومن كل عشرة أعشاش يُقدَّم فرخ غراب كديَّة إلى النسر. فإذا ما قدمت الديَّـة نم مرتاح البال.

لكن مع مضـي الأعوام تغيَّـرت الأوضاع بصورة أعمق فأعمق. فقد راق المكان الخالي للإنسان، وبدأ باستخدام الفأس والطَّبر، فتقلَّصت مساحة الغابات، وجفَّت المستنقعات، وأصبح النهر ضحلاً. في البداية أقيمت على ضفة النهر قرى صغيرة، ثم بلدات وقرى كبيرة، وضياع لأصحاب الأطيان، وتردَّد صدى ضربات الفؤوس في أعماق الغابات، معكِّراً صفوة الحياة العادية الآمنة للوحوش والطيور. تنبَّأ شيخ الغربان آنذاك بحلول فترة خطرة، لكن الغربان الفتيَّة واصلت التحويم والنعيق بابتهاج بالقرب من مساكن البشر، كما لو أنها ترحِّب بالقادمين الجدد. إن القلوب الفتيَّة قد سئمت وصايا الأجداد الصارمة، وحلَّ الخراب في أعماق الغابات، فتطلَّب الأمر إيجاد أماكن مجهولة وحشية جديدة، وانقسمت الغربان إلى جماعات، وبدأ توجيه الملامات، ودبَّت الفتنة والانقسام...

حدثت في آن واحد مع هذه التغيرات تغيرات أخرى في أوساط عشائر الطيور، وتبيَّـن أن الباشق العجوز ليس بمستوى المهام الشاخصة أمامه. كان يستطيع إدارة الأمور فقط في وجود أنظمة السلطة الأبوية القديمة، أما حين تعقَّدت الأمور، واندَّست في كل خطوة عناصر جديدة في أوساط الغربان، فإنه فقد كلياً الحس الإداري. وقد وصفه الرؤساء الكبار بأنه طاقية نوم عتيقة، واعترضت الغربان على سلطته، وصارت تنعق في أذنه باستمرار بشتى الترَّهات. أما الباشق العجوز فبدلاً من أن يستأصل الشرَّ من جذوره راح يرفُّ بعينيه فقط بطيبة قلب، ويقول مازحاً: «سيأتي زمن الإصلاحات وستعرفون ما هو اسم أم كوزكا!»[10]. أخيراً جاءت الإصلاحات، فأُرسِل العجوز إلى التقاعد (الأرشيف)، وعينوا بدلاً منه باشقاً فتياً تماماً ليشغلَ منصب الرئيس، في حين شغل الباز منصب المساعد ليمارس مهام الرقابة.

جاء الرئيسان الجديدان إلى عشيرة الغربان، وقالا لها كلمات قاسية بلا رحمة. نبر الباشق «سأضعكم في مكانكم!»، وأضاف الباز «أنا أيضاً»، وأعلنا بعد هذا القول أن الضرائب ستزداد منذ الآن فصاعداً بمقدار ثلاثة أضعاف، وسلَّما قسائم الدفع، ثم انصرفا.

بدأ إفقار الغربان كلياً، وتردَّدت في الغابة أقوال: «فرضت ضرائب باهظة، ولم تمنح أماكن معيشة جديدة!». لكن لم يلق الباشق والباز بالاً إلى شكاوى الغربان، وأرسلا أعوانهما الصقور لاقتناص المتمردين الذين يروجون الأقاويل عبثاً بين النَّاس. وهُدِّم آنذاك الكثير من الأعشاش، وألقي القبض على العديد من عشيرة الغربان، وسُلِّمت لقمة سائغة إلى الذئاب والثعالب. ساد اعتقاد بأن الغربان ستنصاع للتهديد، وستجلب الجزية على أطراف أذنابها بعد أن يصيبها الفزع. لكن الغربان الخائفة اضطربت ونعقت شاكية فحسب: «اذبحونا، وأطلقوا النار علينا، لكن من أين نأخذ الأتاوة».

الوضع على حاله الآن: الغربان تعاني من الفاقة والخزانة لا تمتلئ. وما يحصل عليه الغُراب في مكان ما يستولي عليه الصقر في الطريق. صفوة القول ليس ثمة أسوأ من هذا الحال. فكَّرت

عشيرة الغربان في البحث عن أماكن جديدة للسكن، وأرسلت الرسل للاستطلاع، لكنها طارت ولم تعد؛ ربما ضلَّت الطريق، وربما اعترضت طريقها الصقور، وقضت عليها، وربما ماتت من الجوع. ليست مزحة أن تترك الغربان أماكن سكناها، وتحلِّق في مكان مجهول. لا توجد الآن أماكن خالية! فقد تسلَّل الإنسان إلى جميع الأماكن! وضاقت به بعض الأماكن أيضاً. إنه يمضي قدماً إلى الأمام حاملاً الفأس، فتئن الغابات، وتهرب الوحوش، وبينما هو مشغول منذ الصباح حتى المساء في تشطيب جذوع الأشجار، وتمهيد الأرض للزراعة، وبناء البيوت، يرتجف من البرد والجوع ليلاً في القبو تحت الأرض بانتظار أن ينتهي هذا الهرج والمرج ويسود النظام.

استغرق الغُراب العجوز في التفكير طويلاً، وأخيراً خلص إلى الرأي التالي: «يجب الطيران وإعلان الحقيقة كلِّها». لكنَّه عجوز وطويل، فهل سيبلغ في طيرانه المكان المطلوب؟ إن الطريق طويلة. ينبغي أولاً كتابة عريضة إلى الباشق، ومن ثم إلى الباز، وفي نهاية المطاف إلى الحدأة، التي كانت تتولى الإشراف على شؤون عشيرة الغربان في ذلك الوقت بصفتها رئيسة المنطقة.

توجد لدى الطيور، كما لدى البشر، دوائر ومرجعيات، ويسأل الغُراب في كلِّ مكان: «هل راجع الباشق؟ وهل راجع الباز؟»، فإذا لم يراجعهما فإنَّه سيعدُّ من المتمردين، وقد ذاع صيته بهذه الصفة.

في نهاية المطاف غادر الغُراب العجوز العشَّ في وقت مبكر من الصباح، فرأى الباشق رابضاً فوق شجرة صنوبر عالية، كان شبعان، وانشغل بتنظيف مخالبه بمنقاره.

رحَّب به الباشق بمودة: «مرحباً، يارئيس! ماهو طلبك؟».

نعق الغُراب العجوز بحماس: لقد جئت إليك يا صاحب السعادة من أجل إعلان الحقيقة! إن عشيرة الغربان تواجه الهلاك، إنها تهلك! البشر يقتلوننا، والديَّات الباهظة التي تُفرض علينا تحكم علينا بالفقر المدقع، وتسلبنا صقوركم ما يتبقَّى لدينا.. سلالة الغربان تهلك، فكيف سنعيش حينما لا نجد ما نقتات به.

- هكذا المسألة. أليست جميع المصائب التي داهمت عشيرتكم متأتية من التقصير والإهمال؟

- أنت نفسك تعرف أنَّه لا يوجد تقصير من جانبنا؛ نحن ننبش الأرض منذ الصباح وحتى الليل، بحثاً عن القوت. نحن نعيش بعرق جبيننا، والغُراب النزيه يحيا كما ينبغي له أن يحيا. لكن أصبح من المستحيل الحصول على القوت بطريقة شريفة.

أمعن الباشق التفكير هنيهة، كما لو أنه لم يجد بعد الكلمة المناسبة، وفي نهاية الأمر قال:

- دبروا أموركم بأنفسكم!

لكن هذا القرار لم يكن مرضياً للغراب، بل زاد اضطرابه فقط. وأجاب بحرارة:

- أنا أعلم بأن الجميع الآن يدبرون شؤونهم بأنفسهم. لكن عشيرتنا من الغربان لا تمتلك القدرة على ذلك. الآخرون يسرقون الملايين، من دون أن ينالهم العقاب، في حين إذا سرق الغُراب قرشاً يصدر عليه الحكم بالإعدام. فكّر ألا يعدُّ إصدار حكم بالموت بسبب سرقة قرش جريمة؟ وأنت تقول لنا: «دبروا أموركم بأنفسكم!». لقد عُينت رئيساً علينا من أجل حمايتنا من الإساءات، وقد تبيَّن أنك أول من يُهلك ويُضطهد. إلى متى نبقى صابرين؟ وإذا ما كنت...

لم يتمَّ الغُراب قوله وارتعد: إعلان الحقيقة ليس أمراً يسيراً.

لكن كما قلنا آنفاً كان الباشق شبعان، ونظر بمودة ولطف إلى الضيف الثقيل الظل.

وقال: أنا أعلم، لا تكمل قولك.. نحن نسمع هذه الأغنية منذ وقت بعيد، وقد شملنا الرب برحمته... مع ذلك خُذ بعين الاعتبار: جئت إلـيَّ من أجل إعلان الحقيقة، وها قد تلعثمت لدى قول أول كلمة. هل أنهيت قولك كله؟

أجاب الغُراب وهو يرتعد في مكانه: قلت كلَّ شيء.

- إذن فاسمع الجواب: إن هذه الحقيقة معروفة لدى الجميع منذ وقت بعيد. ليس لديكم فقط أنتم الغربان، بل لدى الصقر والباز والحدأة، لكنَّها لا تناسب زماننا، مهما أعلنت، وصرخت في جميع المنعطفات، فلا فائدة من ذلك. عندما يحين الوقت ستعلن عن نفسها بنفسها أما متى فهذا ما لا يعرفه أي أحد. هل فهمت؟

ردَّ الغُراب بحسرة: لقد فهمت شيئاً واحداً هو أنه حلَّت نهاية عشيرة الغربان!

- ما دمت لم تفهم فدعنا نتحدث. أنت تقول إن الإنسان يقتلكم، لكن هل نستطيع، نحن الطيور، الوقوف ضد الإنسان؟ لقد اخترع الإنسان البارود، فبم يكون جوابنا على ذلك؟ لقد اخترع الإنسان البارود وراح يصلينا به، ويفعل بنا كلَّ ما يحلو له. نحن مثل الرجال الموجيك تنهال عليهم المصائب من شتى الأنحاء: فتارة طريق السكك الحديدية، وتارة ماكينة جديدة، وتارة محصول رديء، أو فرض ضريبة جديدة، وهم يتقلَّبون شاكين في أماكنهم فقط. كيف استطاع أن يسيطر جوبوشليوبوف على الطريق، وبعد ذلك نقصت حافظات نقودهم عشرة كوبيكات، فهل بوسع الإنسان البسيط أن يفهم ذلك؟ لقد اخترع جوبوشليوبوف البارود، أما الموجيك الرجل البسيط فلا يجيد سوى نبش الروث. وما دمت مثل الدودة فعش مثلها. علماً أنكم معشر الغربان لا تتساهلون مع الدود، تذكَّر ذلك! ماذا لو رفعت الديدان دعوة ضدكم، ستكون الغربان أول من يعجب لذلك: «هذه الديدان الزاحفة، تتحدث أيضاً!». هكذا الحال ياشيخ! الحق مع الغالب. هل فهمت الآن؟

قال الغُراب بحزن: معنى ذلك أننا يجب أن نهلك؟آخ، أي كلمة قاسية قلتها!

- سواء أكانت الكلمة قاسية أم غير قاسية، فالمسألة لا تكمن في ذلك، جوهر المسألة لا يكمن في هذا، بل في أنني لم أخف عنك الحقيقة. إنها ليست الحقيقة التي تبحث عنها، بل تلك التي يجب أن

يأخذها كل واحد بعين الاعتبار في زماننا. دعنا نواصل الحديث. أنت تقول إن الصقور تستحوذ على طعامكم في الجو، وإنني أنا نفسي أخرِّب أعشاشكم، وإننا لسنا حماة بل مخربون. أنتم تريدون أن تحصلوا على القوت، ونحن أيضاً نريد ذلك. لو كنتم أقوى منا لافترستمونا، أما ونحن الأقوى فنفترسكم. هذه حقيقة أيضاً: أنت أبلغتني بحقيقتك، وأنا أبلغك بحقيقتي. لكن حقيقتي أنا فقط هي التي تنفذ في الواقع، في حين أنَّ حقيقتك تحوم وراء السحب. هل فهمت؟

- الهلاك! لابدَّ من الهلاك! واصل الغُراب العجوز ترديد ذلك، دون أن يدرك المغزى الفعلي لأقوال الباشق. لكنَّه شعر بصورة غريزية أنها تتضمن نوعاً من القسوة التي لا مثيل لها.

تطلَّع الباشق إلى صاحب العريضة من الرأس حتى الذنب، وبما أنه كان شبعان، أراد أن يمزح مع الغُراب العجوز.

قال له: هل تريد أن ألتهمك! عندما رأى الغُراب يتراجع غريزياً إلى الوراء، أضاف: لا تخف! أنت هزيل وعجوز فأيُّ طعام هذا! هيا انشر جناحيك!

نشر الغُراب جناحيه، وعجب هو نفسه لمظهره: إنه عظم وجلد فقط. لا يوجد أي زغب أو ريش، لن ينظر إلى مثل هذا الطير حتى الذِّئب الجائع.

- انظر كيف أصبحت. هذا فقط لأنك تفكر على الدوام بالحقيقة. لو عشت عيشة الغربان، بلا تفكير فكيف سيكون حالك! بالمناسبة، حان الوقت لإنهاء الحديث. أنت تشكو -أيضاً- لأن الأتوات التي تؤخذ منكم، أنتم الغربان المساكين، كبيرة، هذا حق. لكن فكِّر، ممن سنحصلها؟ من العصافير والزميرات وطيور السميلي والشرشورات؟ هل بوسع هذه الطيور الصغيرة إعطاء الكثير؟ أما طيور الدج الصغيرة والطيهوج ونقار الخشب والوقواق فهي تعيش منعزلة، ولن تعثر عليها في وضح النهار. الغربان وحدها تعيش مجتمعة، مثل الموجيك الحقيقيين، علماً أنها تعلن عن نفسها جهاراً باستمرار، ولا عجب في كونها أصبحت مضرب المثل في الحكايات، فاصبر! حقاً لقد غدا دفع الأتوات في الفترة الأخيرة أكثر صعوبة من السَّابق، لكن تسديدها واجب. لقد ازدادت المتطلبات، وازدادت الرسوم: اسأل أي واحد عن ذلك، هذا واقع الحال ياشيخ. أنت قلت الحقيقة، وأنا قلت الحقيقة، أما أيُّ حقيقة أقوى، فهذا ستقرره معيشتكم أنتم الغربان. إذاً ارجع من حيث أتيت، فأنا أريد أن أغفو قليلاً.

لكن الغُراب لم يرجع من حيث أتى، بل حلَّق متوجهاً إلى الباز.

فكر في دخيلة نفسه: «ليكن ما يكون»، ولوَّح بجناحيه العجوزين بصعوبة: سأنهي المسألة حتى الختام! وإذا لم يتقبل الباز حقيقتي، سأذهب إلى المحافظة لمقابلة الحدأة نفسها، ولن أتراجع عن الحقيقة!».

كان الباز يعيش في وهدة، يصعب الوصول إليها. جلس عند مدخل مسكنه صقر مناوب، يستقبل الضيوف. في هذه المرة كان المناوب الصقر إيفان إيفانتش المعروف لدى جميع الغربان،

والمحبوب لدى الباز (ترددت إشاعات بأنه ابنه غير الشرعي) كان يكلّف بأهم المهام وأكثرها سريَّة. إنَّه طير جسور، ينمُّ مظهره عن اللطف والمودة، سلوكه طيب وحتى متأنّق ولا يجد مانعاً في المزاح والانغماس في اللهو في مكان ما وراء السحب، ومطاردة البنات؛ الراقصات في لعبة جاريلكي، وحتى تقديم خدمة ما إلى صديق-رفيق. إنه يحتفظ بجميع صفات المودة هذه حين لا يكون في الخدمة. ولكنَّه حالما يتولّى تنفيذ واجباته (بالأخص المهام السرية) فإن طبعه يتغيَّر كلياً، إذ يصبح بارد الطبع وصارماً ينفِّذ الأوامر بقسوة، يتلقى أمراً بالاقتناص فيفعل ذلك، وعندما يتلقى أمراً بأن يخنق فريسة يفعل ذلك. وإذا كان الطير أكبر منه وأقوى بمقدار الضعفين فإنه يحلِّق فوقه بحركات بهلوانية، ما يجعله يصرخ ويتقلَّب في الجوِّ من الحزن والكآبة. عموماً كانت الطيور، التي قد تقع في قبضته، ترتعد من الرعب بمجرد ذكر اسمه.

رحَّب إيفان إيفانتش بصاحب العريضة ساخراً: لم تستطع النوم يا شيخ؟

فأجابه متملِّصاً: أي نوم لدى الشيوخ؟

تابع الصقر قوله: لقد جئت لإعلان الحقيقة؟ حسناً، هذا الأمر يخصك وحدك. هل أبلغ عن قدومك؟

- نعم. أرجو أن تقدِّم لي هذه الخدمة.

ذهب إيفان إيفانتش عبر المنخفض وغاب ساعة. وقد انتظر الغُراب عودته بفارغ الصبر وبقلب واجف. في نهاية المطاف ظهر أمامه، وقال: لقد أمر الباز أن أقول لك إن لا وقت لديه للثرثرة معك. حقاً إن شكاواك القديمة معروفة للجميع، وهذا يعني أنَّها معيوبة، ما دامت لا تظهر بحد ذاتها. إن طبعك مضطرب، وتروِّج كلمات جوفاء بين النَّاس. كان الأولى افتراسك منذ وقت بعيد، لكنّك عجوز وهزيل وضعيف. هل ستذهب الآن إلى حاكمة الإقليم؟

- لا، ما الحاجة... أراد الغُراب إخفاء نيته.

- لا ترفض الاعتراف بذلك! أنا أعرفك جيداً! إذاً لتحلِّق إليها! لكنني أخشى أن تفقأ عينك لقاء حقيقتك هذه. حذار من أن تضلَّ الطريق! أنت لا تعرفها، انظر إلى السحابة هناك، تحت تلك السحابة يوجد مكمنها.

قرَّر الغُراب، على الرغم من تحذيرات الصقر، إيصال موضوع العريضة حتى النهاية. قطع طريقاً طويلاً وملتوياً، وبات في المغارات التي تركها الوحوش، واقتات على الثِّمار البريَّـة التي يندر وجودها على سفوح الجبال. وفي نهاية المطاف اخترق سحابة، فتراءى أمامه مشهد ساحر.

ثمة قمم جبال متلاصقة عديدة تغطِّيها الثلوج، تتألَّق بنور الشَّمس السَّاطعة. ظهر من بعيد قصر خرافـيٌّ، تجمدت سحابة أسفله، وأعلاه، وبدلاً من السقف انداحت السماء الزرقاء إلى ما لا نهاية.

جثمت الحدأة - حاكمة الإقليم - فوق صخرة، وقد أحاطت بها طيور مختلفة كثيرة. جلس إلى يمينها باز أبيض، هو مساعدها ومستشارها، وعند ساقيها تقلَّب، رأساً على عقب، جميع أصناف موظفي المهام الخاصة: ببغاوات، وطيور الدغناش، والسميلي العالمة، وخلفها جوقة من الزرازير جلبت بريد الصباح، في حين ربضت نائمة فوق قمة منفردة أصناف البوم، وألَّفت ما يشبه مجلس المحافظة. وتراءت من بعيد غربان كثيرة، تضع الريش فوق آذانها، وتدوِّن الأوامر والتوجيهات والبلاغات وتصرخ: «من الموقد الساخن، الزوج بخمس كوبيكات!».

كانت الحدأة عجوزاً هزيلة، وكاد منقارها يصرُّ صريراً من الشيخوخة. وفي اللحظة التي حطَّ فيها الغُراب عند ساقيها، أنهت تناول طعام الغداء، وراحت ترمش بعينيها في شبه غفوة، وتهزُّ رأسها، رغم اللغط والضجيج الشَّديدين. لكن ظهور صاحب العريضة أثار في الطيور نوعاً من الفوضى، وبفضل ذلك اختلجت الحدأة.

سألت الغُراب بلطف: هل جئت بطلب أيها الشيخ؟

- لقد جئت من أقاصي الأرض، لكي أعلن حقيقتي يا صاحبة المعالي! بدأ الغُراب الكلام لكن الباز أوقفه فوراً.

- لا حاجة للخطابة!

أوقفه الأخير ببرود. قل ما تريد بلا مقدمات وتزويق، بشكل واضح وببساطة، بنداً فبنداً. ماذا تريد؟

بدأ الغُراب بعرض طلبه بنداً فبنداً: الإنسان يقتل عشيرة الغربان، وأما الصقر والباشق والباز فقد أضجرتها بمطالبها، وبالرسوم الباهظة التي جلبت لها الفاقة. كان الباز لدى ذكر كل بند يصرُّ بمنقاره، ويقول:

- أنت على حق أيها الشيخ.

كان قلب الشيخ يرقص في صدر الغُراب العجوز لدى سماع هذه التأكيدات، ففكَّر في دخيلة نفسه: «في نهاية الأمر! سأرى الحقيقة التي أعاني بسببها منذ أيام الفتوة. سأخدم عشيرتي، بدفاعي عنها!». وفيما واصل الكلام غدا أكثر حماسة وحرارة. أخيراً قال كلَّ ما في جعبته وسكت.

سألته الحدأة: هل قلت كلَّ شيء؟

أجاب الغُراب: قلت كلَّ شيء.

- هل قدَّمت الطلب إلى الباز والباشق؟

- قدمته لهما.

وطرح باقتضاب حديثه مع الباز، وكذلك اللقاء الذي لم يتم مع الباشق.

نبر ت الحدأة: هذا ما سأقوله بصدد حقيقتك؛ أنا جالسة منذ أكثر من مائتي عام فوق هذه الصخرة، وأتطلع إلى الشَّمس ولو من جانب... لكنني لم أستطع أن أرى الحقيقة وجهاً لوجه حتى الآن.

نعق الغُراب بحيرة: لكن لماذا؟

- لأنه لا يمكن وضعها لتناسب الطير. وإذا ما اعتقد أحد ما أنه امتلك ناصية الحقيقة فيجب عليه تنفيذها، أما نحن فلا نستطيع ذلك لهذا ننظر إليها بارتياب. أعتقد «أنها ربما تمرُّ بنا دون أن تتوقف!».

استغرقت الحدأة في التأمل هنيهة، ثم واصلت الكلام:

- لقد قال لك الباز كلمة خشنة، لكنَّها صائبة. الحقيقة أمر جيد لكن لا يمكن اتباعها في جميع الأوقات وفي كل مكان. يمكن أن تجذب بعضهم، غير أنَّها تبدو لبعضهم الآخر باعثة على السخرية والملامة. قد يُسرُّ بعضهم لخدمة الحقيقة، لكن كيف يأتي إليها فارغ اليدين! الحقيقة ليست غراباً، ولا يمكن القبض على ذنبها. انظر حولك، ثمة خلافات ونزاعات في كل مكان، ولا يستطيع أحد الجزم حقاً إلى أين يمضي ولماذا.. ولهذا يشير كل واحد إلى حقيقته الشخصيَّـة. لكن سيأتي زمان تصبح فيه لكل نأمة حدود واضحة، وسيفكِّر كل واحد كيف يجب أن تجري حياته حينما تزول الخلافات والمشاحنات، وفي الوقت نفسه ستتبدَّد جميع «الحقائق الشخصية» كالدُّخان، وستظهر حقيقة واقعيّة موحَّدة وملزمة للجميع، ستحلُّ هذه الحقيقة، ويسود السلام الكون، وسنحيا جميعاً سوية وفي محبة. هكذا الأمر يا شيخ! فطر بسلام، وأخبر عشيرة الغربان أنني أعتمد عليها كما لو أنَّها جبل من صخر!

سمكة الفوبلا المقدَّدة

اصطيدت سمكة الفوبلا[11] ونُظِّفت أحشاؤها (أبقوا فقط على الغدد الذكوريَّـة من أجل استمرار النسل)، وعلِّقت على الحبل من أجل أن تجفَّ، وتغدو رخوة تحت الشَّمس. بقيت الفوبلا معلَّقة على الحبل يومين، وفي اليوم الثالث تجعَّد بطنها، وجفَّ رأسها، وتقلَّص مخُّها وأصبح رخواً.

وهكذا عاشت الفوبلا بمرور الأيام.

قالت الفوبلا المقدَّدة: إنه لأمرٌ جيِّدٌ أن أجريت هذه التعديلات علـيَّ! الآن لم تعد لديَّ أفكار زائدة على اللزوم، ولا مشاعر زائدة، ولا ضميرٌ زائداً، ليس لديَّ أيُّ شيء من هذا! فقد انتزع مني كلُّ ما هو زائد على اللزوم، ونظَّفوني وجفَّفوني، وسأتبع مساري بيسر وهدوء!

سمعت السمكة حينما كانت حيَّـة وتسبح حرَّة، بأنه توجد في الدنيا أفكار زائدة وضمير زائد ومشاعر زائدة. والحقُّ يقال إنها لم تحسد قط أولئك الذين لديهم هذه الأمور الزائدة على الحاجة؛ فقد كانت منذ الولادة فوبلا رصينة، ولم تدسَّ أنفها في شؤون الغير، ولم تصبُ إلى كسب «ماهو زائد»، ولم تسبح في الأوهام، ولم تعاشر أهل السُّوء. كما حدث أنها سمعت من يثرثر عن الدساتير - الآن إلى اليسار در، اختبىء تحت أوراق نبات راعي الحمام. لقد عاشت تحت تأثير هذا كلَّه بشيء من الخوف، لأنه قد يحدث ما يحدث، وتحلُّ الساعة المنشودة. بغتة.. ففكَّرت في «زماننا العجيب!». يبلُغ العجب حد اتهام البريء بجريرة المذنب! إنَّهم يتحرُّون ويفتِّشون في كلِّ مكان، وإذا لاذ البريء «بالقرب» من أحد ما فإنهم يتحرون عن «القرب»: أين كنت؟ وبأيِّ مناسبة؟ وبأي أسلوب؟ إلهي، أرجو أن «تخلِّصني وترحمني!». إذاً يمكن أن نتصوَّر مدى فرحتها حينما اصطادوها، واستأصلوا منها جميع الأفكار والأحاسيس! لقد انتصرت وقالت: «الآن تفضَّلوا! خذوا كلَّ ما تريدون، ومن يرغب! فلديَّ جميع الأدلة ظاهرة للعيان!».

غير معروف ماذا تعني الفوبلا بتعبير الأفكار والأحاسيس «الزائدة على اللزوم»، لكن فعلاً ظهرت أمام أنظارنا أشياء كثيرة زائدة على الحاجة، هذا ما لا أستطيع عدم الاتفاق معه. لم يذكر أحد جوهر هذا الزائد على الحاجة، لكن ثمة إحساساً غامضاً بأنه أينما توجَّهت ستجد زيادة ما، لذا يجب عليك أن تأخذ هذه الزيادة بعين الاعتبار، أو أن تتفاداها بغية ألا يعتقد أحد بأنه يجري خداعه. وهذا كلُّه يولِّد الكثير من المشاغل والتعقيدات والهموم الجديدة عموماً. يرغب المرء في المضيِّ، كما في الماضي، في طريق مستقيم، لكن هذا الطريق تراكمت فيه الأشجار المتهاوية بسبب العاصفة والحفر الناجمة عن الأمطار الشديدة، ويجب السَّير فيه بعيداً لأداء مهمَّة تافهة. يدرك كل إنسان من أصحاب الميزات حالياً صعوبة الأمر، ومدى صعوبة أن يحقق الرؤساء ذلك. هذا لا يرد في الحكايات، ويصعب وصفه بالقلم. الكوادر قديمة، والمشاغل جديدة، كما إن الزيادة كثيرة لدى الكوادر نفسها. كان لدى الموظف سابقاً حزام من الحديد الزهر، فهو حالما يجلس على مقعده في الساعة العاشرة صباحاً، لا ينهض عنه حتى الساعة الرابعة، كان يواصل العمل بلا توقف! أما الآن فهو يأتي إلى العمل في الساعة الواحدة بعد تناول الفطور، فيدخن السيجارة طوال ساعة، ويردِّد «الطقطوقات» طوال ساعة أخرى، ويقضي بقية الوقت -دون فائدة- بالتجول بين الطاولات، ولا يفقه شيئاً في خفايا عمل المكتب. يبدأ بتقليب أوراق ملف ما: «انظروا، أي عجب!»، ثم يفتح ملفاً آخر: «انظروا! فهو كله - أعطه كل شيء، وهذا قليل!». يجمع نصف علبة

من الغرائب والعجائب، ثم يذهب لتناول الغداء في حانة بالكين. كيف تضمن ألا تعلن جدران حانة بالكين هذه العجائب! أنا أؤكد لكم، لو فرضت عقوبة السِّجن بالاشغال الشَّاقة لقاء كل قلِّة حياء في المكاتب، لما وجدت عندئذ قلة الحياء!

يطرح المرء السؤال:كيف تتم ترقية الرئيس! لدى الجميع أعوان من المحسوبين عليه، وفي الوقت نفسه لا يوجد لديه أحد، ولدى الجميع من يتسترون عليهم، وفي الوقت ذاته لا يوجد لديهم أحد! كيف يمكن عندئذ إيقاف تدفُّق «الزائد على الحاجة» في عالم الخصوصيات، حينما تجد في قلعتك، وأينما نظرت، في كل مكان، أشياء زائدة على الحاجة، وتفيض فوق الحافة!

إن الحياة صعبة وصعبة جداً في وجود هذا القدر الكبير من الزيادات! سيضطر المرء إلى تلمُّس طريقه كلَّه، فهو يعتقد أنه عثر على المكان الحقيقي، ثم يتبيَّـن أنَّه كان يفتِّش في مكان «قريب» منه. إنه شيء لا فائدة منه، وعقيم، وقاسٍ، ومجلَّل بالعار. لنفترض أن المصيبة ليست كبيرة حين يصبح البريء مذنباً، ويزداد عدد الأبرياء المتهمين! اليوم هو بريء، لكن غداً من يعرف؟ غداً من يعرف ما سيحدث له؟ هنا تكمن المصيبة الحقيقيَّة: فإذا لم يكن ثمة مذنب حقيقيٌّ! لابدَّ من البحث مجدداً، ومجدداً لا نعثر على شيء! هذا ما يجري طوال الوقت. من المفهوم أنه حتى الأفراد المميزون والمحنكون (أولئك الذين لا يلتهمون الشموع الشحمية، ولا يمسحون أجسادهم بالزجاج) باتوا في مأزق! فلا يرغب أحد في الجلوس بجسده فوق إبر القنفذ، وكل واحد يصرخ ويعول: «ربي! احفظني!».

لا، كما تريد، لابدَّ من أخذ هذه الزيادة بالحسبان في وقت ما، وإبداء العناية بها، ومعرفة: من أين جاءت؟ ولماذا؟ وإلى أين تتسلَّل؟ لا يمكن أن يتقدَّم إلى الأمام الوقحون الذين خلعوا جلباب الحياء، فقد يظهر أحد ما يجلب المنفعة.

من المحتمل جداً أن هذه الأمور لم ترد في ذهن سمكة الفوبلا البتة. لكنَّني أكرِّر: لقد كانت تشعر سواء أكانت مجففة أم غير مجففة فإنها ستؤكل على كل حال. حين جُفِّفت وهويَّت جيداً في الشَّمس، اقتنعت بأنه لا يوجد في داخلها أي شيء باستثناء الغدد الذكورية، فابتهجت، وقالت لنفسها: «الآن سأبصق على كلِّ شيء!».

هذا ما حدث بالضبط: فهي الآن، حتى قياساً بما سبق، أصبحت أكثر رصانة وجديرة بالثقة. إن أفكارها معقولة، وأحاسيسها لا تمسُّ أحداً، وضميرها موضوع فوق خمسة كوبيكات نحاسية (أي لا قيمة له - المترجمة). إنها تجلس وحدها في طرف المكان، تتحدث كما تكتب، وحين يدنو منها شحاذ تنظر حولها، فإذا رأت أحداً تدسُّ في يد الشحَّاذ قرشاً. أما إذا لم تر أحداً فإنها تهزُّ رأسها قائلة: الله يعطيك!. عندما تلتقي أحد المعارف لا بدَّ أن تتبادل معه الحديث، تقول رأيها بصراحة، وتكيل آيات المديح للجميع. لا تندفع نحو شيء ما، ولا تنطلق، ولا تحتج، ولا تستعطي، بل تثرثر برزانة عن أمور رزينة... عن الأقوال المأثورة مثل: إذا مشيت ببطء فستصل إلى مكان أبعد، والسمكة الصغيرة أفضل من الصرصور الكبير، وإذا أسرعت في الجري أثارت سخرية النَّاس وهلمجرا. غير أنَّ المقولة الأهم هي: أن الأذن لا تنمو أعلى من الجبين.

يهتف محدِّثها إذا كان من المعارف الجدد:

- آه، فوبلوشكا! كم يبعث على الملل خداعك! حتى إن النفس تشمئز من ذلك!

فتردُّ فوبلوشكا باستحياء:

- الجميع يشعرون بالملل في البداية، ملل وملل، لكن بعد ذلك ينتابهم شعور طيب. ستعيش في هذه الدنيا، وسيجري التحرّي والتفتيش حولك طولاً وعرضاً، وعندئذ ستذكر فوبلوشكا، وستقول: «شكراً، لقد علمتيني أصول الحكمة والعقل!».

طبعاً لا يجوز عدم إبداء الشكر، لأنه إذا ما توخينا الحق فإن فوبلوشكا قد بلغت عين الصواب. قد تطرأ أحوال لا تدرك فيها أصول الحكمة والعقل بصورة حقيقية، ولن تجد سوى حكمة فوبلوشكا وعقلها فقط. يمضي النَّاس كالشَّمس ولا يحسنون أداء أي شيء، ولا يبهجهم شيء، ولا يحزنهم شيء. وفجأة يتردَّد في الأذن همس مسكِّن ومغرٍ: «بهدوء وبخفة، لا يموت المرء مرتين، في حين لا مفرَّ من الموت الواحد..». إنها هي، فوبلوشكا، تهمس. شكراً لك يا فوبلوشكا! لقد قلت الحقيقة: لا يموت المرء مرتين، فالموت الواحد يجثم على الكتف منذ القدم!

لو لم تهبَّ فوبلوشكا لإنقاذي لبقيت وحيدة في الهاوية. بيد أنها لم تُبن أين يوجد الملاذ، بل شيَّدت قلعة كاملة، علماً بأنَّها ليست القلعة التي يجلس فوقها العابثون، ويبحثون فيها عن الطرائف الغريبة، إنها قلعة حقيقية، لا ترد في ذهن أحد أفكار حول إيجاد ثغرات فيها! هناك كل شيء مدبر في الخفاء، وهناك لا يذكر شيء عن أي أمر زائد على الحاجة! إذا أردت الأكل، فكل. وإذا رغبت في النوم، فنم. سر واجلس وثرثر! لا تجوز إضافة شيء إلى هذا. كن سعيداً فحسب وفقط.

أنت ستكون سعيداً، وكذلك حال من يعيش بالقرب منك؛ الجميع سعداء! لن تمسَّ أيَّ أحد، ولن يمسَّك أحد. نم وصادق وعش! وسيجري التحري بالقرب منك، ليس لأن الدرب مطروق في كل مكان، وجميع الأبواب مفتوحة على مصاريعها. «إلى الأمام بلا خوف أو شك!»، أو بتعبير آخر، تجول في المكان المطلوب!

- من أين حصلت يا فوبولشكا على هذا العقل النير؟ سألتها الأسماك الشاكرة اعترافاً لها بالجميل، وهي الأسماك التي لم تُسلخ بفضل نصائحها.

- لقد وهبني الرب العقل منذ ولادتي، أجابت فوبلوشكا بتواضع، زد على ذلك فإن مخي تعرَّض إلى التهوية في أثناء التقديد.. ومنذ ذلك الحين بدأت أنشر العقل...

وفعلاً، فبينما يبني الحالمون القصور في الهواء، يبثُّ الحاقدون سمومهم في الأفكار الطليعيَّة، أما فوبلوشكا فتنشر عقلها فقط، وبهذا تجلب المنفعة للناس. لا تؤثر أيُّ افتراءات، وأيُّ أفكار حاقدة، وأيُّ أفكار طليعية ثعبانية على البشر، كما يؤثر مثال فوبلوشكا التربويُّ المتواضع. «الأذن لا تنمو

أعلى من الجبين!» هذا بالذات ما قاله قدماء الرومان «Respice finem»[12]، هذا يناسبنا بقدر أكبر.

إن الافتراء جيدٌ، والأفكار الحاقدة على البشر أفضل، لكنَّها توجه صفعة شديدة لنا، لا يستطيع تحمُّلها كلُّ إنسان بسيط. ويبدو كلُّ شيء وكأنَّ نصفه صحيح والنصف الآخر زائف. الشيء الأساسي ألا ترى نهاية الطريق. المرء يصغي ويطالع ويفكِّر على الدوام: «هذه شطارة، شطارة فعلاً، ولكن ماذا بعد؟» يتردَّد الافتراء مجدَّداً، وتنتشر السموم مجدَّداً، وهذا ما يبعث على الحيرة. هل هي عقلانية فوبلوشكا المتواضعة؟ «لا تمسَّ أحداً، وعندئذ لن يمسَّك أحد» هذه قصيدة كاملة! حقاً إن هذه العقلانية الذائعة الصيت ضعيفة وبلا بريق، لكن انظر كيف تتلمَّس الإنسان، وكيف تصقله بعناية، وعندما تختتم دورة التعذيب، ويشعر الإنسان بأنه لا يوجد أي موضع في جسده بلا ألم، ولا يوجد إحساس آخر في الروح باستثناء الكآبة اللامحدودة، تهبُّ فوبلوشكا مُرددة أقوالها المأثورة المتواضعة. إنها تتسلَّل بلا ضجَّة إلى المصاب بالعلَّة وتخدِّره بلا ألم، وعندما تقوده إلى الجدار تقول: «انظر ما أكثر الخربشة هناك. لو عملت طوال حياتك في فكِّ رموزها فلن تفكَّها كلها!».

انظر إلى هذه الخربشة، وإذا كانت لديك رغبة ابحث عن مغزاها. هنا جمع كلُّ شيء في مكان واحد: وصايا الماضي، ووسم الحاضر، وألغاز المستقبل، تغطيها كلَّها طبقة كثيفة من مختلف أنواع القاذورات والرجس والسيول وآثار سوء الطقس. وبما أنَّه لا توجد رغبة في استكناه جوهر الخربشة فهذا أفضل. صدِّقني إنَّ جوهر هذه الخربشة يمكن التعبير عنه بعدة كلمات «الأذن لا تنمو أعلى من الجبين». وبعد ذلك عِش.

لقد أدركت الفوبلا جميع هذه الأمور تماماً، أو الأفضل القول إنها هي التي أدركتها، إن عملية التقديد التي مرَّت بها، جلبت لها هذا الإدراك، وفيما بعد تبنتها عوامل الزمن والظروف، وأعطتها مجالاً واسعاً لوضعها قيد التطبيق.

لقد تكشَّفت أمامها جميع الآفاق تدريجياً، وقدَّمت الخدمات في كل واحد منها، كما قالت كلمتها في كل مكان، الكلمة الخالية من الفكرة المبتذلة والرخيصة، لكنَّها الكلمة التي لا يوجد أفضل منها في الظرف الراهن.

حينما تغلغلت فوبلوشكا في صفوف البيروقراطية تمسَّكت في غالب الأحيان بسرِّ الإدارة وتدوير التواريخ. وقد أكَّدت قائلة: «إن الشيء الرئيس هو ألا يعرف أحد شيئاً، وألا يشكَّ أحد بأيِّ شيء، وألا يفهم أحد شيئاً، بغية أن يتهادى الجميع كالسَّكارى!». وفعلاً بات واضحاً للجميع أن هذا بالذات ما يجب عمله. أما بصدد تدوير التواريخ فإن فوبلوشكا أكَّدت، بشكل مقنع، أنه من دون ذلك لا يمكن طمس الآثار أبداً. توجد في العالم كلمات كثيرة، لكن أخطرها هي الكلمات المباشرة والحقيقية. ينبغي عدم قول الكلمات الحقيقيَّة، لأنَّه بسببها تظهر العيوب. خذ الكلمة الجوفاء وانشرها على الملأ. انشرها وانشرها، وانظرها من جانب، ثم انظر إليها نظرة خاطفة من جانب آخر، ولتكن لديك القدرة على قول: «للأسف، وأعترف»، وفي الوقت نفسه لا تخفف نشوة الابتهاج، وتحدَّث عن روح الزمن، لكن من دون أن تغفل إطلاق العنان لشهواتك. عندئذ تتكاثف العيوب،

وتبقى حقيقة فوبلوشكا وحدها. أما تلك الحقيقة المنشودة، التي تساعد على العيش نهار اليوم، وتكشف حقيقة الغد، فلا تحزر.

تسلَّلت فوبلا إلى صفوف «المفضلين»، وهنا قدَّمت خدماتها أيضاً. في البداية قال المفضَّلون باعتزاز: «نحن - ذا- وأنتم - ذا، سنقتفي أثر أفكارنا!» هذه مجرد كلمات فقط. وبينما تجلس فوبلوشكا بتواضع في الركن تفكِّر في دخيلة نفسها: «كلمتي ستأتي لاحقاً». وفعلاً، رفضت الفكرة مرة، ثم رفضت مرة أخرى، وفي المرة الثالثة اجتمعوا لرفضها، لكنَّهم لم يستطيعوا الاتفاق على رأي. وبينما صرخ أحدهم: «هذا قليل!»، تعالى صوت آخر قائلاً: «هذا كثير!»، وأعلن ثالث التمرُّد بكل معنى الكلمة: «لنذهب، يا إخوان، إلى الأمام... ». لكن من سيسمح لهم بذلك. عندئذ أظهرت فوبلوشكا نفسها. لقد انتهزت الفرصة حين جفَّت حلوق الجميع، وقالت: «نحن نستطيع الرَّفض حينما نُسأل، أما حينما لا يسألنا أحد فيجب علينا الجلوس بهدوء وقبول ما يعرض علينا من مكافآت». «كيف ذلك، لماذا؟»، «لأن هذا -حسب قولها- تقرر منذ قديم الزمان: إذا سألت فارفض! وإذا لم تسأل فاجلس وتذكَّر أن الأذن لا تنمو أعلى من الجبين!». وفجأة زالت الغشاوة عن العيون لدى سماع كلمات فوبلوشكا هذه، وصار المفضَّلون يكيلون المديح لفوبلوشكا، وعجبوا من ذكائها وفطنتها.

تجمَّع حولها الجميع من الجهات كافة، وقالوا: من أين لك هذا العقل الراجح، لولاك لكنا في أقصى الأرض حيث يرعى مكار الغنم.

ابتهجت فوبلوشكا لدى سماعها إطراء مآثرها وقالت:

- أنا أصبحت بهذا الذكاء لأني قُدِّدت في الوقت المناسب. ومنذ ذلك الوقت اتضحت الأمور لديَّ كلياً: لا أحاسيس زائدة، ولا أفكار زائدة، ولا ضمير زائداً، لا يوجد أي شيء زائد فيَّ. وأؤكد شيئاً واحداً لنفسي وللآخرين هي أن الأذن لا تنمو أعلى من الجبين! لا تنمو!

- هذا صحيح، وافقها المفضَّلون، وقرروا فوراً وإلى الأبد: إذا سُئلت ارفض الجواب! وإذا لم يسألوك فاجلس واستلم مكافأتك.

بقيت هذه القاعدة سارية المفعول حتى الآن.

حاولت السمكة المقدَّدة الحكمَ على ضلال البشر، فأفلحت في ذلك أيضاً، وأثبتت بجلاء أنه ما دامت الأفكار الزائدة والأحاسيس الزائدة تجعل الحياة صعبة، فإن الضَّمير الزائد لا فائدة منه أيضاً. إن الضَّمير الزائد يملأ القلب بالخوف، ويوقف حركة اليد المستعدة لرمي الحجر، ويهمس للقاضي: «اختبر نفسك!». وما دام الضَّمير قد انتزع من البطن مع بقية الأحشاء فإنه لا يعرف التهيُّب أصلاً، في حين تملأ الأحجار «العُب». تنظر السَّمكة المقدَّدة، دون أن يرفَّ لها جفن، إلى ضلالات الإنسان، وتأخذ برمي الحجارة عليها. لكلِّ ضلالة رقم، وفي المقابل يدوَّن على كل حجر رقم أيضاً، ومن ثم لا يتبقَّى سوى إجراء الحسابات المنصفة بلا محاباة؛ العين بالعين، والرقم بالرقم. وإذا ما حطَّم المرء حياته كلياً، فالذَّنب يقع عليه. وإذا تحطَّمت جزئياً، فهذه عبرة لمن

يعتبر. وهكذا فإن هذه المعقوليَّة تحظى بإعجاب الجميع، وغالباً لا يتذكَّر أيُّ أحدٍ الضَّمير من دون أن يستغرق في الضحك...

كانت مآلات أعمال فوبلوشكا في مجال نشر الأفكار السليمة في المجتمع مثمرة إلى أبعد حدٍّ، فقد كانت تجوب المدن والقرى منذ الصباح وحتى المساء مردِّدة أغنية واحدة: «لا تجعل الأذن تنمو أعلى من الجبين!». علماً أنها لم تكن تردِّد الأغنية بحماس، بل برصانة ووقار، لذا لم يكن ثمة سبب للغضب عليها. لكن قد يصرخ أحدهم في فورة انفعال: «يالها من حقيرة... انطلقت في الغناء!»، لكن لا يجوز أن يطلق أحد ما الشتائم، ويصفها بالحقيرة لدى نشرها الأفكار السليمة...

إن الفوبلا المقدَّدة لم تنزعج لدى سماع مثل هذه الشتائم. وكانت تقول لنفسها وليس بلا سبب: «دعهم أولاً يصغون إلى صوتي ويعتادون على ذلك، ومن ثم سأبلغ هدفي... ».

لابدَّ من قول الحقيقة: إن المجتمع الذي وُجِّهت إليه نصائح الفوبلا وتعاليمها لم يتميز بالصَّلابة اللازمة، وكان يوجد فيه أناس لديهم قناعة، لكن أكثرهم من ذوي الأفكار المتنوعة. حقاً إن هذا يتوفَّر في كل مكان، لكن في الأماكن الأخرى تتوفَّر لدى أصحاب القناعة لحظات تنوير، لكنَّها قصيرة. وقد سُمح بوضع ذلك الحشد من النَّاس في لحظة خاطفة، ليتمكَّنوا من السَّير في الطَّريق القويم، ويستوعبوا التصَّور حول حقهم في الحياة، لكن ليس بصورة تلقائية، بل بشكل يجعلهم يستطيعون فيه الدِّفاع عن هذا الحق لدى الحاجة. ويمكن القول، بشكل جازم، إن هذه المهمة تتَّسم بالعذاب. فما أكثر الضحايا الذين يسقطون بسببها، وما أكثر العرق والدم اللذين يُراقان من أجلها، والأفكار المحزنة والأليمة التي تراود الإنسان بسببها! ولكن إذا ما ومضت نتيجة هذه الجهود لحظة سرور واحدة فقط(زد على ذلك لحظة السرور الوهميَّة)، فإنها تعدُّ بمثابة مكافأة كافية لتبرير سنوات كاملة من المهالك القادمة...

علاوة على ذلك، انتشر في هذا الزمن الاضطراب والفتنة والقسوة. وعانى النَّاس، أصحاب الإيمان، من التمزُّق والعذاب وانقطاع السُّبل، وطرحوا المطالب، لكنَّهم وجدوا الأبواب مغلقة أمامهم. أما النَّاس ذوو الأفكار المتنوِّعة فأعربوا عن حيرتهم من الطلبات والمساعي، وفي الوقت نفسه تنشَّقوا الهواء لمعرفة أي رائحة تنبعث فيه. إن الرائحة ليست طيبة، وكذلك تحسَّسوا وجود حلقة حديدية، تضيِّق الخناق عليهم يوماً بعد يوم أكثر فأكثر: «من سيقدِّم لنا المعونة؟ من سيقول الكلمة المناسبة». كان النَّاس ذوو الأفكار المتنوِّعة يكابدون الحزن في كل لحظة وقد أسرَّهم كلَّ السرور سماع أصوات تدعوهم إلى أن يصحوا.

تحلُّ فترة تأمل قصيرة: لقد قرَّر النَّاس ذوو الأفكار المتنوِّعة أمرهم، لكنَّهم ما زالوا يشعرون بالخجل. ولكن بعد ذلك بدأ الحشد المتنوع شيئاً فشيئاً بالتحرك أكثر وأكثر، وفجأة تعالى الصراخ: «لا تنمو الأذن أعلى من الجبين!».

يصحو المجتمع. إن مشهد التحرُّر التام من الأفكار الزائدة، والأحاسيس الزائدة، والضمير الزائد، لطيفٍ للغاية، ما جعل المفترين والحاقدين على البشر يلتزمون الصَّمت فترة من الزمن. إنهم مضطرون للاعتراف بأن الفوبلا البسيطة، ذات الغدد الذكورية والمخ المجفَّف قد اجترحت عجائب

في تحقيق النَّزعة المحافظة التي لم يجرؤوا على التفكير فيها. لكن ما جلب السَّلوى لهم: أن هذه المآثر اجترحتها الفوبلا تحت غطاء عويلهم الحاقد على البشر. لو لم يلجؤوا إلى استخدام القفَّازات ذات الإبر القنفذية، ولو لم يهددوا الآخرين بالحشر في قرن الخروف، فهل كانت الفوبلا لتستطيع ترويج دعايتها السَّلمية التنويريَّة بنجاح، من دون أن ينهالوا عليها بالمناقير؟ويسخروا منها ضاحكين؟ وأخيراً، أليس مستقبل العقارب والجروح، التي يتسبَّب بها المفترون في كل لحظة، قد أثَّرت في قرار النَّاس ذوي الأفكار المتنوِّعة؟

لقد ابتدع بعض المفترين ثغرة تفيد في الأحوال كافة. كانوا يكيلون المدائح، لكنَّهم مع ذلك يخفون في «أعبابهم» حجارة. كانوا يقولون: «شيء رائع، نحن نتقبل بارتياح صحوة المجتمع من غفوته، وزوال الخيال الباطل، واستقرار الحياة السليمة غير المزوقة. لكن هل سيكون هذا لفترة طويلة؟ وهل صحوتنا طويلة الأجل، هنا يكمن السؤال. وبهذا المعنى فإنّ الطَّابع السِّلمي الذي اتَّسمت به عملية بعثنا تطرح أفكاراً جدية. فنحن إلى الآن نعرف أن الضَّلالات لم تمتلك السَّلاح بيسر، حتى عندما جاءت الحقائق الراسخة. وهنا برزت بغتة، بصورة غير متوقعة، بفضل مكانة القول المأثور -لنفرض أنه قول طيب رسَّخته خبرة القرون- لكنَّه ليس أكثر من قول مأثور، يعدُّ سماً قاتلاً، وينتشر في كل مكان! هل الأمر كذلك حقاً؟ هل الطَّلب الذي طرق أسماعنا، وطرح أمام أبصارنا صادق؟ وهل يعدُّ حلاً وسطاً أُعِدَّ بشكل حاذق، أم هو [13] modus vivendi مؤقت لغرض التمويه؟ هل توجد في الأساليب المعتمدة، التي رافقت البعث، سمات تلك الليبرالية الرخيصة، التي تجنَّبت الأساليب المجرَّبة، مثل القفَّازات القنفذية، بغية التخلُّص من عبء الغول الجاثم فوق صدورنا؟ وهل تنسى بكل يسر وخفة أن مجتمعنا ليس سوى خليط متنوع وبلا خاصية من مختلف النزعات والتراكمات، لا يمكن التأثير فيه بنجاح إلا عندما تتوَّحد، بصورة مسبقة، العناصر المتنوعة المكوِّنة له في محصلة واحدة؟».

مهما كان الحال فقد عثر على النبض الحقيقيِّ السليم. في البداية استوعبوه في الصَّالونات، ومن ثم تسلَّل إلى الحانات، وبعد ذلك.... ابتهجت السِّيدات وقلن: «ستبدأ عندنا الآن الحفلات الراقصة». أما التُّجار في الأسواق فقد مدُّوا الأقمشة، وانتظروا تنشيط الصناعة.

بقي شيء واحد: البحث عن «قضيَّة» حقيقيَّة وسليمة، يمكن من خلالها تحقيق النبض.

لكن حدث عندئذ شيء غير متوقَّع. فقد تبيَّن أن القفَّازات القنفذيَّة بقيت في أدمغة الجميع، ولم يفكِّروا في العمل إلا بقدر قليل، حتى إنهم لم يستطيعوا تسميته بالاسم. يقول الجميع عن كل طيب خاطر: «يجب القيام بعمل ما»، لكن أي عمل... إنهم لا يعرفون. أما الفوبلا فكانت تتجوَّل عندئذ في صفوف حشد البعث، مردِّدة بكل ارتياح: «الأذن لا تنمو أعلى من الجبين! لا تنمو!».

وعارضوها قائلين: «مهلاً، يافوبلوشكا! إن هذا «نبض» فقط، وليس «عملاً». أخبرينا ما هو العمل الذي يجب أن نقوم به!».

لكنَّها ردَّدت القول ذاته، ولم تتراجع عنه قيد أنملة! وهكذا لم يعرف شيء بصدد العمل.

زد على ذلك أنه طرح من جانب سؤال آخر: ماذا لو بدأ العمل الحقيقي في نهاية الأمر، من سيقوم به؟

- أنت يا إيفان إيفانتش هل ستقوم به؟

- كيف أستطيع ذلك يا إيفان نيكيفورفتش، إن بيتي يقع على أطراف البلدة، أما أنت فتستطيع....

- ما هذا القول! ما هذا القول! هل يوجد لديَّ رأسان لكي أغامر بأحدهما! أنا، يا أبتاه، لم أنس.

تواصل الحديث على هذا النحو. فلدى أحدهما بيت على أطراف البلدة، ولدى الآخر لا يوجد رأسان، والثالث نسي شيئاً ما.. الجميع ينظرون حولهم، بحثاً عن مكان تحت البوابة يتسلَّلون منه، وقلوب الجميع ليست في مكانها، أما الأذرع فهي كالأسواط...

«الأذن لا تنمو أعلى من الجبين!» هذا قول جيِّد، وقويٌّ، ولكن ماذا بعد؟ هل نطالع ما كتب من خربشات على الجدران؟ لنفرض أن هذا جيِّد أيضاً، فماذا بعد؟ عدم التحرُّك، عدم الصأصأة، عدم دسِّ الأنف في شيء، عدم التفكير؟ هذا رائع أيضاً، وبعد؟

كلَّما طرحت الاستنتاجات المنطقية الناجمة عن نظرية فوبلوشكا بهمة أكبر، يعلق في البلعوم أكثر فأكثر السؤال: «وماذا بعد؟».

انبرى للإجابة على هذا السؤال المفترون والحاقدون على البشر:

لقد قالوا وكتبوا: «إن التعاليم المأخوذة بحدِّ ذاتها والمسماة بنظرية الفوبلا المقدَّسة، لا تستحقُّ التنديد فقط، بل لا يمكن الوثوق بها تماماً. لكن المسألة لا تكمن في النظرية وموضوعاتها، بل في الوسائل التي استخدمت في تطبيقها، وقد حذرنا منها ذوي الشأن منذ البداية. إن هذه الوسائل لم تكن نافعة، كما اتضح الآن. لقد حملت وصمة تلك النزعة الليبرالية البغيضة التي قادتنا أكثر من مرة إلى شفير الهاوية. وإذا لم نبلغ بعد قاع الهاوية، فإن هذا تم بفضل التفكير السَّليم، الكامن منذ القدم في أساس حياتنا، فدع هذا التفكير السليم يقدِّم الآن -أيضاً- خدمته المعتادة، وليبلغ الجميع الذين يتفهمون بجد مصالح وطنهم. إنَّ الوسيلة المناسبة الوحيدة التي يمكننا أن نتوَّصل بفضلها إلى نتيجة ما هي القفَّازات القنفذيَّة، وهذا ما توصينا به تقاليد العهود الماضية، التي تدلُّ عليها الفوضى الحالية. إنَّ هذه الفوضى ما كانت لتحدث البتة لو أصغي إلى تحذيراتنا في الوقت المناسب، وأخذت بعين الاعتبار. ونحن نكرر «Caveant consules»[14]، ونضيف إلى من لا يعرف اللاتينية أنّ هذه العبارة تعني باللغة الروسية: كن يقظاً!».

بهذا تبين أنه على الرغم من تقديد الفوبلا، واستخراج أحشائها، وتجفيف مخِّها، فإنها في نهاية المطاف انفلتت من عقالها، وتحوَّلت من منتصرة إلى مشتبه بها، ومن سمكة ذات نوايا طيبة إلى سمكة ليبراليَّة. ولكونها ليبرالية فإن الفكرة الكامنة في أساس دعايتها أخطر من تلك الموثوق بها.

لقد ارتكبت في صباح ما جريمة نكراء، إذ أمسك أحد المفترين الغيورين السَّمكة المقدَّدة من خيشومها، وقضم رأسها، وسلخ جلدها، والتهمها أمام بصر الجميع...

نظر النَّاس ذوو الأفكار المتنوِّعة إلى هذا المشهد، ولوحوا بأيديهم وهتفوا: «عاشت القفَّازات القنفذيَّة!. لكن التاريخ نظر إلى هذا الأمر بصورة مغايرة، وكتب في قلبه سراً: «بعد مرور مائة عام سأنشر هذا كلَّه!».

حريق في القرية

نشب حريق في قرية سوفونيخا، وقتَ الظهيرة. حدث ذلك عندما بلغت الأعمال الحقليَّة ذروتها في يونيو، كان الرجال والنساء في الحقول. قيل إنه مرَّ بالقرية جنديٌّ، وجلس على المصطبة، ودخن الغليون، ثم انصرف. وفي أعقاب ذلك نشب الحريق.

احترقت القرية كلُّها. بقي سالماً فقط نصف عنبر الغلال. فقد الفلَّاحون في ساعة واحدة كلَّ شيء، وأصبحوا متشردين. احترقت الجدَّة براسكوفيا، وكذلك الصبي بيتكا، ابن تاتيانا. وعندما رأى الرجال والنساء الدُّخان الكثيف أسرعوا من الحقول كالمجانين تاركين وراءهم المحاريث والخيل. لكن لم يجدوا ما يمكن إنقاذه، ولحسن الحظ لم تكن الماشية في القرية، كما أنَّ الروث كان قد نقل من هناك منذ فترة قصيرة، وإلا لما بقي سوى الموت. وقد هرب الأطفال، الذين كانو يلعبون في الشارع، إلى النهر، وتعالى صراخهم. نظرت الصبايا حاملات الأطفال الرُّضَّع بأيديهن بفزع إلى البيوت المحترقة وهياكل المواقد العارية. أما العمة تاتيانا فكانت امرأة نشيطة، وما زالت في ريعان الشباب، توفي زوجها منذ ستة أعوام، لكنَّها واصلت العناية بالمزرعة وإدارة الشؤون البيتية. كانت تقدِّم نصف المحاصيل والموارد إلى الإدارة المحليَّة، وتقوم بأعمال الحرث والحصاد والعصر. وكان لديها ابن وحيد هو بيتكا في الثامنة من العمر، وقد عقدت عليه الآمال في أن يشبَّ ويصبح رجلاً في المستقبل، كان يعدُّ نفسه رجلاً ويقول: سأكون ياماما رجلاً.. فلاحاً. لقد أحبته

القرية كلّها؛ كان صبيّاً نشيطاً حلو المعشر، يرتاد المدرسة. وكان إذا ما سار في القرية بمحاذاة الشيوخ يسألونه:

- كيف الأحوال يارجل، هل تساعد ماما.

- نعم، أساعدها.

تراكم في القرية شتّى سقط المتاع: الفلّاح يعتزُّ بكلِّ شيء، ويحتاج إلى كلِّ شيء. راح أصحاب البيوت مع أفراد أسرهم يبحثون في رماد بيوتهم، ويأخذون كل ما يقع تحت أبصارهم: كعب حذاء قديم، ومسماراً صدئاً، وقطعة من حزام صدر الحصان، وشظية من سلاح المحراث وهلمجرا. سلمت الأقبية لدى بعضهم. وبما أن الموسم ساده الجوع (فترة صوم الرسل) فإن الأقبية كانت فارغة. تقطَّعت السُّبل بأحد الفقراء المعروفين، الذي واصل التسوُّل مدة عشرة أعوام، وراح يصرخ:

- أين غلايتي؟ أين؟ من أخذها؟ أخبروني: من؟

أما العجوز أفدوتيا فراحت تسعى في الشَّارع جيئة وذهاباً، وتبرز للجميع ورقتي قرض داخلي احترقت أطرافهما، في حين سلمت من الحريق عدة كوبونات لدى الجارة.

عمد المختار ميخي إلى تهدئتها بالقول: حتماً ستستبدل! لاسيما أن الأرقام باقية (على الورقتين المحترقتين). ثمة سيدة تراجع بهذا الشأن في بطرسبورج. (ملاحظة: في عام 1872 جاءت إلى كاتب هذه السطور فلّاحة من قرية زاوزيريه في قضاء اوجليتسكي)، وأبرزت له ورقتين أو ثلاث أوراق احترقت أطرافها، لكن ظهرت وسطَ الكوبونات المحترقة أرقامها المتسلسلة، وقد رجوت بعض معارفي الطيبين مساعدتها في مراجعة البنك. وبدا أنَّ كلَّ شيء لا يبعث على الشكِّ. لكن السيِّد لامانسكي مدير البنك آنذاك كان له رأي آخر. وتبيَّن أن من المستحيل استبدال الأوراق وحتى دفع قيمتها الاسمية، وزعم أن هذا لمصلحة البنك. هكذا يحمي كبار الموظفين خزانة الدولة! (ملاحظة سالطيكوف-شيدرين).

اجتمع الشُّيوخ وناقشوا موضوع احتياجات القرية. وبدت على وجوه الجميع علائم الحزن الشَّديد: انهمرت الدموع من عيون بعضهم، وقرروا أن يذهبوا جميعاً إلى أهالي القرية المجاورة، ليطلبوا منهم توفير الملاذ لأصحاب البيوت المحترقة لحين تشييد مساكن مؤقتة لهم، ثم بعثوا مختار القرية على صهوة حصان إلى المدينة لمراجعة إدارتها بغية الحصول على المعونة ومخصَّصات التأمين.

جاء أبونا كاهن القرية، وتجوَّل بين الفلّاحين، محاولاً تهدئتهم. فقال:

- من أعطى؟ الرب! ومن أخذ؟ الرب!فهل هو لا يعرف؟

طأطأ الفلّاحون رؤوسهم صامتين.

وتابع الكاهن قوله: لا تقنطوا. بأي حق، لماذا، كيف، من سمح بذلك؟ الماشية موجودة لديكم، والآلات الزراعية سليمة، والروث نقل، ماذا يحتاج المزارع أكثر من هذا. أنتم تتذمَّرون وتشكون! ستقدِّم الإدارة المال من أجل البناء، وصاحبة الضَّيعة سترسل الحبوب. وأنا أيضاً.. أصلِّــي من أجلكم. أنا أصلِّــي ليس من أجلكم فقط بل من أجل الجميع، ومن أجل جميع الفلَّاحين المؤمنين الأرثوذكس، هكذا الأمر.

بينما طأطأ الفلَّاحون رؤوسهم مرَّة أخرى، واصل الكاهن المحبُّ للثرثرة الكلام:

- ما دمتم تحتفظون في قلوبكم بالخوف من الرَّب، وترتادون بيت الله بانتظام فسترون أن الربَّ سيعوِّضكم بمائة مرة. من المتوقَّع أن يكون محصول الحبوب الآن جيِّداً. المحاصيل الشتويَّـة ممتازة، أما المحاصيل الربيعية فستتحسن بإرادة الربِّ، فاخصموا النصف من المحاصيل لتقديمه إلى صاحبة الأطيان، وسيتبقَّى لكم التبن، انقلوا إلى السُّوق حمولة عربة وأخرى، وستكون لديكم نقود في محافظكم، بعد ذلك ستبيعون المحاصيل الشتوية والجوادار في السُّوق، وستتوافَّر لديكم النقود مجدداً، وفي نهاية الأمر ستبيعون الأغنام، النقود أيضاً. وفي السنة القادمة سترون بدلاً من البيوت التي التهمتها النيران بيوتاً جديدة جميلة ومريحة وفسيحة، وستعيشون جميعاً فيها. كل واحد في بيته، وستشكرون جميعاً الرب على نعمائه والخير العميم الذي أتاكم. سترون ذلك.

أما العمة تاتيانا فكانت تتجول عاجزة في رماد بيتها، وتقلِّب الجذوع المحترقة وتنادي:

- بيتيا، بيتيا! أين أنت ياعزيزي! أجبني!. لم تسمع قول العجوز كاليستراتش لها:

- انظري ربما ذهب إلى الغابة. أنا رأيته هناك في أثناء الحريق. كنت جالساً على المصطبة عند عنبر الغلال، حينما امتدَّ اللَّهب إلى بيتكم. رأيت بيتكا في حجرة الضِّيافة وهو يلوح بقميصه في النار، فصرخت فيه: ادفع ياعزيزي، ادفع الباب! لكنَّه كان يدور ويدور حول نفسه، وبعد ذلك لم أعد أستطيع رؤية شيء. ربما هرب إلى الغابة من الخوف.

لم تشعر تاتيانا بأيِّ شــيء باستثناء تمزُّق قلبها إلى شظايا:

- بيتيا، بيتيا، أين أنت ياحبيبي! أجب! كان عويلها يتردَّد وسط لغط أهالي القرية.

فــي نهاية المطاف أشفق عليها اثنان من الأهالي وهرعا لمساعدتها، فأزالا أنقاض السقف المنهار، ووجداً جثَّة الصَّبيِّ تحتها. كان جسده ووجهه، من الأعلى، كتلة سوداء مشوَّهة في حين ظلَّ جسده من الأسفل، وجزء من وجهه من الجهة السفلى سليماً لم يمسَّه سوء.

تأرجحت تاتيانا، وغطَّت الغشاوة عينيها، وانطلق من صدرها عويل هزَّ القرية كلَّها:

- ياإلهي، هل ترى ذلك؟

سمع عويلها -أيضاً- الكاهن الذي هرع، بلا ريب، لتهدئتها. وقال لها بلطف معاتباً:

- أنت تتذمَّرين! هل تذكرين سفر أيوب. لا. إذاً أنا أذكِّرك به؛ لقد كان رجلاً ثرياً وجليلاً ولديه أبناء وبنات وقطيع من الماشية وكنوز، وفجأة فقد بإرادة الرب كلَّ شيء: الأبناء، والبنات، والماشية، والأصدقاء. وهو نفسه أصيب بداء الجذام، وطرد من المدينة، وبقي طريحاً عند بوَّابة المدينة وسط العفونة والقمامة، والكلاب تلعق جروحه.. الكلاب! لكنَّه لم يتمرَّد بسبب كل ما حدث له، بل أحبَّ الربَّ الذي خلقه أكثر. وعندما رأى الربُّ إخلاصه أنعم عليه بالبصيرة، وبعد فترة قصيرة أصبح أيوب صحيحاً معافى وثرياً وماجداً أكثر من السَّابق، وتضاعف عدد قطيعه، ورزق بما يكفي من الأبناء والبنات. صفوة القول، كان لديه كلُّ شيء...

لكن مواعظ الكاهن بلغت تاتيانا بشكل ضجيج غامض ومضجر. لقد توجَّهت ببصرها نحو ذلك الخط الذي يفصل بين القسم المحترق والسليم من وجه بيتيا، وقالت:

- يا إلهي، هل ترى هذا؟

يومذاك كانت تحتفل صاحبة الضَّيعة بعيد ميلادها، وهي امرأة طيبة القلب، اسمها آنا أندرييفنا كوبييشكوفا. اجتمع لديها نفر قليل من الأصدقاء الأوفياء: رئيس الناحية كيبياشيف وزوجته، ومدير شرطة المنطقة شيبياشيف مع ابنة أخيه، وكذلك إيفان إيفانوفتش جلاز، وهو شخص متميز، يقال إن من الواجب عدم الثرثرة في حضوره. علماً أنَّه من الواجب عموماً عدم تقييد اللسان في حضورهم (قالت آنا أندرييفنا نفسها إنها تخدم في دائرة ما)، لهذا كان إيفان إيفانوفتش يشعر بالارتياح جداً معهم. كما حضر -أيضاً- الكاهن مع زوجته.

كانت آنا أندرييفنا زوجة جنرال، عاشت معه طوال أربعين عاماً ونيِّف، وكانت حسناء، تميزت على الأخص بصدرها العالي الذي يظهر في الحفلات الراقصة والأمسيات، إذ تأتي حتماً بفستان يبرز كتفيها العاريتين (ديكولتيه)، فيجذب صدرها أنظار الأفراد من جميع الأعمار وجميع أفراد الرتب العسكرية. لكنَّها قالت لنفسها بشكل قاطع وإلى الأبد: «لا، لا، لقد انتهى ذلك»، وكرَّست نفسها لتربية أولادها. قيل عنها في الأوساط الاجتماعية: «إنها قديسة!». في حين وصفت روحها الوطنيَّة بأنها «صلبة المبادئ». وكانت مثل جميع السيِّدات الروسيَّات من الطبقة الراقية تتحدَّث باللغة الفرنسية، وتعرف قليلاً من الرياضيات، وقليلاً من الجغرافية، وقليلاً من الميثولوجيا، وعاشت فترة طويلة خارج البلاد، وفي الفترة الأخيرة صارت تتمتَّع بروح وطنيَّـة، وأحبَّت «الشعب الروسيَّ الطيِّب». قبل ثلاثة أعوام زارت ضيعتها جوربيلوفو حيث مسقط رأسها، ومنذ ذلك الحين صارت تسافر إليها في كلِّ صيف. أقامت في الحديقة ضريحاً لزوجها الرَّاحل، وراحت تصلِّـي هناك يومياً. لم ترتبط بمعرفة أحد باستثناء «الأصدقاء المستقيمين»، ولم تشارك في إدارة شؤون الضيعة والمنزل، وأعطت الأراضي للفلَّاحين ليستثمروها، ويبدو أنها كانت توفِّر النفقات. لديها ابن اسمه سريوجا، وهو طالب حقوق، عمره ستة عشر عاماً، وابنة، فيروتشكا، وهي صبية مرحة، تعرف -أيضاً- قليلاً من الرياضيات، وقليلاً من الميثولوجيا.

كان سادة الضيعة قد عادوا لتوِّهم من الكنيسة، وجلسوا لتناول الفطور، حينما جاء من يبلغهم بأن سوفونيخا تحترق. اختفى الكاهن في لحظة خاطفة من أجل الوعظ والإرشاد. أما الآخرون فهرعوا إلى النوافذ من أجل رؤية الحريق. غير أن اللَّهب لم يُرَ وراء سحب الدُّخان الكثيفة التي مضت مع

الريح باتجاه الضيعة، وقد شُمَّت رائحته النفاذة في الحجرات. لم يظهر بشر، لكن شوهدت حشود من الفلّاحين الجيران والخدم المسرعين إلى مكان الحريق.

في نهاية المطاف، قالت آنا أندرييفنا: أنتم كما تريدون، لكنَّني لا أستطيع مشاهدة ما يجري وأظهر اللامبالاة، فهم ينتمون إلى ضيعتي، لكن فرَّق بيننا الحاقدون، آمل أن يكون هذا مؤقتاً، لكنَّني أتذكَّر مع هذا أنَّهم فلّاحون تابعون لي.

لم يسمحوا لها باجتراح مأثرة إثبات الذَّات وحدها، فقرَّرت الجماعة كلُّها مرافقتها.

وتابعت أنا أندرييفنا قولها: عموماً هذا واجبنا؛ حتى لو لم يكونوا من فلّاحينا، فواجبنا المقدَّس، على أيِّ حال، يقضي بأن نكون إلى جانب المعذَّبين في الأرض. لقد أصابنا الفقر، ولحقنا الأذى أيضاً.. لكنَّنا نسينا هذا كلَّه، لا بدَّ أن نتذكَّر أن أنظار أخوتنا المعذَّبين تتطلَّع إلينا.

حين علمت بأنَّ الخبز أُعدَّ من أجل العمال والخدم، أمرت بقطع عدة أرغفة، وحملها إلى الذين احترقت بيوتهم.

- غداً ستخبزون الخبز مجدداً.. هذا ضروري! لا تنسوا أن تنثروا الملح فوقه!

باختصار عملت كلَّ ما تخولها به سلطتها، وأخيراً تناولت محفظة النقود، وقالت: «هذا تحسباً للأحوال كافة!». أما فيروتشكا فقد حذت حذو أمها، وأخذت محفظة فيها قطع نقدية لامعة عزيزة عليها.

توقفت الجماعة عند مدخل القرية، لكن فيروتشكا والمدموزيل شيبياشيفا لم تصبرا، وتوغَّلتا في الشَّارع.

صاحت أنا أندرييفنا في أعقابهما: بلِّغا الفلّاحين الموجيك بأنني سأضحي لهم غداً بثمانية كيلوجرامات من الجوادار.

بعد خمس دقائق عادت فيروتشكا مسرعة، والدموع تنهمر من عينيها.

قالت:

- آه، ماموتشكا، هناك امرأة مسكينة احترق ولدها الصَّبيُّ!آه، ياللفظاعة.. ماذا يحدث لها! الكاهن يلقي المواعظ عليها، لكنَّها لا تصغي إليه، بل تكرِّر فقط: «يا إلهي، هل ترى؟». ماموتشكا، هذا شيء فظيع، فظيع، فظيع!

- أنا أشفق على المسكينة: لكن لم أنت عصبيَّة بهذا الشكل يا فيرا! هذا لا ينفع، يا ابنتي! يجب أن تتذكَّري بأنها إرادة الله في كل مكان! طبعاً... هذه خسارة كبيرة، لكن قد يحدث ما هو أفظع، ويجب علينا أن نتحلَّى بالطَّاعة والصَّبر! هل تذكرين انهيار بنك بايماكوف وحسابنا الجاري.. كان يدرُّ

فائدة مقدارها ستة بالمائة.. وبعد ذلك! بالمناسبة لا تطعم العنادل بالخِرافات. يارب! وخاطبت الحاضرين حولها: تبرَّعوا بمبلغ صغير من أجل الأم المعذَّبة المسكينة! وليتبرع كل واحد بما يستطيع.

أخرجت من محفظة النقود ورقة بنكنوت من فئة عشرة روبلات، ووضعتها في راحة يدها، ومدَّتها إلى الأمام، ثم وضعت فيروتشكا فوراً كل ما في محفظتها، وأخرج الضيوف -أيضاً- عدَّة أوراق بنكنوت صغيرة. لكن إيفان إيفانتش جلاز ابتعد جانباً، وراح يصفر لحناً ما. جُمع إجمالاً نحو ثلاثين روبلاً.

قالت آنا أندرييفنا لابنتها: خذيها، واحمليها إليها، وبلِّغيها أنَّ العالم لا يخلو من أهل الخير، وأكِّدي للفلَّاحين الموجيك ما قلته بصدد الجوادار... سأتبرَّع لهم بمقدار ثمانية كيلوجرامات! هل جلبتم الخبز؟ اعطوا الأمر من أجل توزيعه! هذا من أجل إخماد حدَّة الجوع اليوم!

انصرفت فيروتشكا مسرعة، وتراءى لها أنَّها في هذه اللحظة ملاك حارس، يرفرف بجناحيه الفضيين في زرقة السَّماء، وتحمل بيدها ثلاثين روبلاً. لقد وجدت تاتيانا في الوضع ذاته، كانت تقف فاتحةً عينيها على وسعهما، وتحرك شفتيها بصورة تلقائية، ولا تبدو عليها أيُّ علائم الشعور الذاتي. أما الكاهن أبونا فكان يقف إلى جانبها كالسَّابق، ويروي لها أمثلة من تاريخ الشهداء الأوائل في زمن القيصر الطاغية نيرون. غير أن تاتيانا لم تستوعب السؤال بعد: ماذا سيحدث لها لاحقاً؟ وهل تحتاج إلى بيت وحقل وأي شيء عموماً ما كان يملأ حياتها؟ أم أنها ستذهب لتجوب أرجاء الأرض؟

وفجأة جاء الملاك الحارس.

قالت فيروتشكا وهي تمدُّ يدها بالنقود: هاك ياحبوبة، لقد أرسلتها ماموتشكا!

لم تفقه تاتيانا شيئاً، وحتى لم تنظر إلى الصدقة.

وقد حثَّها الكاهن أبونا قائلاً: خذيها، ياعنيدة! السَّادة الطيبون يبدون الشَّفقة، وأنت في المقابل تبدين قلَّة الاكتراث.

لكن تاتيانا لم تحرِّك ساكناً.

وقفت فيروتشكا، ووضعت النقود على الأرض مبتعدة بانزعاج، ثم رفعها الكاهن.

قال: إذا كنت لا ترغبين في أخذها فسأنفقها على زينة الكنيسة. لدينا المبخرة سيئة، سنرمي القديمة، ونشتري أخرى جديدة بهذه النقود! لتشهدوا على ذلك أيها المؤمنون الأرثوذكس!

أجهشت فيروتشكا بالبكاء، وقالت بصوت متهدِّج: ماموتشكا، لم تأخذها!

نبر جلاز بغموض: مع هذا ما زالت لديهم روح! إنها لم تخمد!

لكن آنا أندرييفنا لم توافق على كلامه هذه المرة.

- توجد روح حقاً، لكن ينبغي عدم تجاهل عمق بطلها! قلب الأم فقط يمكن أن يدرك مدى خسارة.. الابن!

لقد تحقَّقت نبوءة أبينا الكاهن؛ فبعد عامين عرج على سوفونيخا فرأى فيها تغييرات كبيرة وجواً آخر؛ فبدلاً من الأنقاض والرماد أقيم صفٌّ بيوت جديدة عالية وفسيحة نسبياً. حقاً كانت الأسقف مغطَّاة بالتبن بشكل منتظم، ولا تتدلَّـى منها أطراف الأعواد. لقد تألَّقت البيوت الجديدة المبنيَّـة من جذوع الأشجار تحت أشعة الشَّمس مثل بيضة فقست لتوها. بقيت الأنقاض في مكان بيت تاتيانا فقط، أما هي فقد غادرت القرية إلى مكان مجهول. لابدَّ أنَّها تجوب أضرحة القدِّيسين، باسم المسيح. عاش الفلَّاحون الموجيك بمودة وبصورة جيدة. إنهم يعملون بهمَّة، ويسدِّدون بانتظام وبلا اعتراض إيجار الأرض والضرائب إلى السُّلطة المحليّة، وأدوا الفرائض: التجنيد، وشق الترع، والطرق. وإذا ما تطلب الأمر أكثر من هذا فهم على استعداد للقيام به.

قال مدير الشُّرطة شيبياشيف:

- إن هذه القرية لا ترد في رأس القائمة لديَّ. ليكن الله في عونكم ياشباب!

1. هذه لفظة روسية تعني الشخص البسيط والجاهل – المترجمة.. ↑

2. «اللوكاشيون» فلَّاحون من محافظة بسكوف مهنتهم دراسة طباع الحيوانات وسلوكها في الغابات وبعد ذلك يبلغون الصيادين كيفية اصطيادها (ملاحظة المؤلف). ↑

3. دع القناصل تلتزم اليقظة! ↑

4. تريزوركا: تدليل تريزور وأحياناً تريزوروشكا- المترجمة. ↑

5. خطيئتي، خطيئتي الكبرى! ↑

6. يوجد أعياد للاسماء في الثقافة الروسية- المترجمة. ↑

7. حسب قناعتي. ↑

8. المجد لك يارب. ↑

9. من قبائل الكفريين. ↑

10. تعبير مجازي روسي يتَّسم بالوعيد والتهديد - المترجمة ↑

11. تطلق كلمة فوبلا باللغة الروسية على نوع من السمك المقدد (المترجمة). ↑

12. فكر في العواقب! ↑

13. تعايش ↑

14. ليحتفظ القناصل باليقظة. ↑

Table of Contents